أرواحنا في المساء

حلول عصرية للأزمات الأسرية والاجتماعية

أيمن جبر

النخبة للنشر والتوزيع

أرواحنا في المساء
أيمن جبر
النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

أرواحنا في المساء

أرواحنا في المساء

أيمن جبر

الطبعة الأولى القاهرة: 2024
رقم الإيداع: 28891/ 2024
الترقيم الدولي: 978-977-8756-67-8

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب
بأي طريقة من دون الحصول على موافقة خطية من المؤلف.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب
لا تعبر عن رؤية الناشر بالضرورة، وإنما تعبر عن رؤية المؤلف.

دار النخبة
عضو اتحاد الناشرين المصريين -" عضو اتحاد الناشرين العرب
مصر القاهرة23 ش عبد الخالق ثروت
Mob &Whats: 00201096124252
info@elnokhbapublish.com
www.elnokhbapublish.com

طبع في مصر

أيمن جبر

أرواحنا في المساء

النخبة
للنشر والتوزيع
2024

إهداء

- إلى نبلاء موقع "حانة الشعراء" الثقافي
- جنود مجهولون وجهود ملموسة على الساحة الثقافية
- يؤثرون الكاتب على أنفسهم
- يقدرون مهاراته وقد يوجهون ناظره إلى مالم يكن يراه في نفسه...

info@poetspub.com

المقدمة

يحدث أن يقع الإنسان على ظهره وهو صغير، فينكسر ويحيا بظهر متقوس إلى الخارج، فيصبح مثل القَتَب، أتخيل كل نساء المجتمع العربي يعشن بهذا القَتَب كعضو طبيعي على ظهرهن، ولكن رحمة الله تعالى حَجَبته فلا نستطيع رؤيته، كي لا تتكدر الحياة ولا يتشوه الجمال.

وليته يُرى بالعين، ولو عين المرأة وحدها، فالمرض المرئي يُحَفِّز على المقاومة ويُغريك بمصارعته، ولكنه محجوب عن عين بني آدم من العرب، العرب فقط، والمحجوب يكون خبيثا.

مع أول لحظات الميلاد تُحْقن الطفلة بُذور نمو هذا القَتَب وتظل تُحقن طوال العمر، يَحقنه المجتمع رجالا ونساءً، وهذا سر عدم مقاومتها له، لأنه يحقن عبر الزمان ويتراكم ويتكوم فيها حتى ينتهي لهذا التشوه النكِد، وهذا سر أنَّ المرأة العربية اليوم هي صورة طبق الأصل من المرأة منذ ألف عام، وهذا أيضا سر عدم انبعاث أي حركة نسائية حتى اليوم، حتى الحركات النسائية الضعيفة التي تنفلت تكون حركات نَفْسية مراهقة، والحركات النفسية لا بد أن يساء فهمها ويتعذر التعاطف معها.

المدهش أنَّ أي دعوة لمقاومة القتب، تواجه بسلبية وإنكار من كل الناس، ومن النساء العرب أيضا، فالقتب أقنع المرأة أنها ناقصة ، وأغلب الأديان عبر التاريخ اشتغلت على حفر وتعميق مفهوم هذا النقص.

تخيل بنت شديدة الجمال ومع ذلك؛ منذ نعومة أظافرها تُوبَّخ بقبحها من الجميع، من كل الرجال وكل النساء، حتى تصدقهم وترى نفسها قبيحة، ولا ينفعها النظر إلى المرآة.

هذه مقدمة قد تكون مستغربة أو مستفزة، ولا يظن أحد أنني سوف أقول كلاما مشابها لما يردده دعاة حرية المرأة الذين سبقوا، بل سوف أكون مختلفا قليلا أو كثيرا، وخارج الصندوق.

الشقاق الأخرس

يتخيل الشاب فتاة أحلامه وثَمرة زَواجه بالألوان الطبيعية، وتظل الألوان زاهية والروائح ساحرة في خياله حتى يتحقق الحلم، وبمرور الأيام تَبْهت الألوان وتزول الروائح ويقع في فخ الاعتياد، فالزواج ليس عملية وضع مفتاح في خزانة فَتُفْتح وتُلتقط جواهرها، ولكن رحلة مشتركة يكافح فيها الزوجان معا وتدور عجلة الحب والسعادة وجَني الثمار.

يتزوج المرء من يختارها بعناية، ويفرح بعروسته، ثم تُنجب وتُنجب وتُنجب وربما تُنجب الطفلَ الرابع، وفجأة تسقط الزوجة والأولاد من قائمة أسباب سعادته، يُصبح مثل الطفل الذي يَصرخ ويبكي طلبا للعبة رَغِبها لنفسه، ثم يَكسرها في دقائق قليلة، ولا يبكي عليها، ولو نظر إلى ألف لعبة سيبكى رَغبةً في الحصول عليها .. "عايز من ده يا بابا".

قد تتبدل أهداف الزوج ويتراجع اهتمامه بأسرته للخلف، ربما يصبح شَرِها للمال فيبْخل على أسرته، أو يصبح زائغ العَين فيطمع في تَعدد العِلاقات النسائية، وقد يصبح عَصَبِيًّا عنيفا مَلولا، أو يطمع أهلُه في مالِه ورعايته، فيُنفق عليهم منهما ويُخِلّ بميزان العدل بينهم وبين زوجته وأبنائه.

الزوجة بنت الناس الطيبين الشبعانين، تتلون بعقدة زوجها ونَزَواته، فإنْ عَشِقَ المال، تُمسك وتنْشَغل بالمال، وإن عَشِقَ النساء، تؤلمها الإهانة ويوسْوِس الشيطان لها بالانتقام، وإنْ أصبح عصبيا عنيفا، تصبح شَعْنونة ومجنونة ونِكَدية وسَليطة اللسان، فيوبِّخها لعصبيتها وانفلات لِسانها، ويتجاهل أنَّه الذي شوَّهها وأفسدها، وإنْ استرده أهلُه، تصبح أسيرة لعبة القط والفأر وتغوص في دوامة التحامل والتربص بينها وبين أهله، أمَّا الأبناء، فلا عَدد للعُقد التي يتشَرَّبوها، كَبْت ومقارنة بالآخرين وعَصَبية مُنْفَلتة مع قسوة، أو جُبن مع خُبث.

كل هذا لأن كثيرا من الأزواج لم يكونوا صالحين للزواج من البداية، كانوا فاهمين نفسهم غلط!

الخلل في الصحة النفسية يُغلق البيوت على عاهات تتحكم في أبرياء، يجب أن يَسْبِق عقد الزواج اختبار نفسي عند متخصص محترف، هذا هو المأذون الأول الذي يجب أنْ يَتقدم على المأذون الشرعي، ربما يَرسب في الاختبار أعداد كثيرة، وبهذا نوفِّر على بناتنا البلاوي والعاهات وقصص الانتحار وقتل الأزواج والزوجات والأولاد التي نُصعق لغرابتها، ولكنها نتائج منطقية لأوضاع شاذة.

* * *

مصطلح "الشقاق الأخرس "، يُعبِّر عن الخلافات الزوجية الخبيثة، سبق أنْ تدخلت للصلح في كثيرٍ منها، ورغم كثرة الحكايات والشِكَايات والدراما، خرجت من جميع الجلسات وتتراقص فوق رأسي سَحائِب ضَبابية من الحيرة، كأنني قـرأت ألاف الصفحات دون أنْ أفهم كلمة واحدة، فتغمرني مشاعر الإحباط وأحساسيس الغباء.

* * *

العلاقات الزوجية شديدة الحساسية وأساس تركيبها وجوهر روحها يعلو على البوح، ولهذا حين تبلغ مرحلة تتطلب تدخل الآخرين، لا تنفع الكلمات المباشرة، فالنظرات التي تخرج من العين سواء مع الكلام أو الصمت تحمل لغة غامضة، وكذلك الإبتسامة والعتاب واللوم والتوبيخ.

تُسأل (المرأة/ الرجل) مائة مرة عن سبب حزنها وغضبها، فتحكي ألف حكاية، وقد تكون كلها صادقة، ولكنها بعيدة عن السبب الحقيقي للشِقاق،

كيف تنطق بأنه في نومه لم يعد يَضع يده على كتفها كلما تقلب، وكأنه يتعمد ألا يتخطى السور الوهمي الذي بُني بينهما، وحين تقترب

وتضع يدها على كتفه ينزلق بهدوء ويتزحزح بعيدا، تسأله فينكر ويستهين بكلامها ويعاود متكلفا وضع يده، ثم يعود مرتدا بعيدا حتى ظنت أنه يعيش في عالم أخر بعيد. هل هذا كلام يقال؟

هذا مثال من ملايين الأمثلة التي لا يمكن أنْ يبوح بها الأزواج، ولكنها تنبع من الرباط المقدس والميثاق الغليظ المكتوب بشفرة خاصة بهما.

ولا تصلح تلك النصيحة الفاشلة والمختَزِلة:

"قل لها كلمتين حلوين".

* * *

المتابع لمباراة الشطرنج من الخارج هو الأقدر على رؤية أفضل، وفي الحياة عندما تندلع اضطرابات ومشكلات، تتسبب في ضغوط هائلة على الفرد، مثلما تضغط "البرودة والحرارة والرياح والأمطار" على الإنسان، تؤثر في قدرته على "التفكير والتحليل والحُكم والقرار"

لا بد أن يساعدهما أشخاص مؤهلون ومتحررون من الضغوط، وينظرون إلى رقعة الشطرنج من الخارج.

* * *

في الغرب عندما يريد أحد الزوجين الانفصال، يقول للطرف الآخر: "أريد أنْ نذهب لاستشاري أسرة "، وهذا يعني جلوسهما متجاورين على مقعد أمام متخصص، يُدير دَفَّة الحديث، بهدف:

1 – أنْ يَفهم المتخصص الزوجين.

2 – أنْ يساعد كل طرف أنْ يفهم نَفسه.

3 – أنْ يساعد كل طرف أنْ يفهم الآخر.

ثم ينتهي الأمر إلى مصالحة بين الزوجين أو فِراق بسلام.

لا بد أن ندرك أنَّ الظروف الحالية في هذا العالم المُعقَّد، أصبحت فوق طاقة ووعي وعاطفة ونفسية الإنسان، كوكب الأرض في آخر خمسين عام حاز إمكانات هائلة، ولَّدت مشاكل أسطورية، ومع ذلك، البشر هم نفس البشر الذين كانوا على الكوكب قبل تلك القفزة، لم يصبحوا سوبر بشر ليكونوا في مستوى الإمكانات والتعقيدات السوبر المتاحة اليوم.

ولهذا وجب الاستعانة بصديق، وهو طبيب الأسرة.

* * *

يبهرني القرآن الكريم بانفراده بتعبيرات ومصطلحات، لا يمكن الاحاطة بقدر الإبداع فيها، ومنها الآية الكريمة:

"وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ" (النساء - 128)

يصف تلك اللحظة التي يساوم الطرفان اللذان جمعهما رباط مقدس، غالبا ما يكون الشح من الرجل، ونادرا ما يكون من المرأة، الشح الذي ينبع من بوتقة الأنا، يكون مفاجأة للجميع، فقد كانا عنوانا للحب والود والإيثار، كيف انقلب الحال؟

يبرز الشح مع قرار الفراق، ينبت مثل دود الأرض، جرثومة كامنة، كما أنَّ دود الأرض ينبت مع موت الإنسان وسكون الدم، تنبت دودة الشح حين تسقط عليها أمطار النفور والشقاق.

الفراق امتحان كاشف، يُبرز الأصيل من الوضيع، فالأصيل يُحب ويحترم ويشكر ويمدح ويلين، والوضيع يذم ويوبخ ويفتري ويتصلب.

وما أكثر الأشِحَّاء وما أندر النبلاء

* * *

هذه فقرة من كتاب الدكتور مصطفى محمود (أيها السادة أخلعوا الأقنعة):

"ولم يذكر عمدة برلين سببا كان هو السبب الأول وراء رعب الشباب من الزواج، هو قيود الطلاق وقانون الأحوال الشخصية الألماني، الذي يقضي للمرأة في حال طلاقها بمناصفة الرجل كل ما يملك من أموال وأرصدة في البنوك وعقارات، بالإضافة إلى حق

النصف في ربح الشركة إذا كان يملك شركة، وربح العيادة إذا كان يملك عيادة، ودخل المستشفى إذا كان يمتلك مستشفى، ومعنى ذلك أن تناصفه كفاحه وتاريخه دون أن تكون زوجة أو حتى قرينا متعاطفا، وإنما مطلقة رافضة له مرفوضة منه فارقته وفارقها بعد شقاق وسوء عشرة لا أمل فيه"

في هذه الفقرة يُحَذِّر من خطر الانقراض الذي يهددهم، فالأسرة الأوربية تم تفتيتها تماما وبلا رجعة، لم تعد الأسرة تُعرف برجل وامرأة وأولاد، بل تم تسييل المصطلح ليدل على زوج من بني آدم وفقط، وأصبح النموذج المفضل للأفلام الأجنبية في أغلبها، الأسرة المُكوَّنَة من رجلين أو أمرأتين، ثم أصبح أغلب شركاء الحياة قططا وكلابا وطيورا.

في الفيلم تقول المرأة للكلب: "ابنتي وابني ".

تنبَّهَت بعض البلاد الأوربية إلى تعيين وزير للعُزَّاب والأرامل والمطلقين، لأنَّ ما يقرب من 40 ٪ من الناس يعيشون بمفردهم، فقامت إنجلترا عام 2018م، بتعيين وزيرا للعزلة أو الوحدة.

هذه الفقرة تجعلنا نجدد الشعور بالنعمة التي في بلادنا، نعمة الأسرة والأُنس والود والرباط العائلي، فنحافظ عليها ونحرص على سلامتها.

* * *

الخلاف والشقاق يحتاج ردود أفعال مختلفة، يجب أن نبحث عن حلول كألوان الطيف ما بين الأبيض والأسود، لا بد من مُبادِرِين لنحت حلول مختلفة، حلول وسط.

أتذكر قصة للأديب "عبد الوهاب مطاوع" في بريد الأهرام، رجل متزوج ولديه أبناء وبنات، حدث تغير حاد في مزاج زوجته حتى أصبح لا يَقدر على الاستمرار، فما كان منه إلا أن اجتهد لتأجير شقة في نفس المبنى الذي يسكن فيه أبناؤه، قام بتوفير أثاث مناسب يمكنه من الحياة فيها، وأصبح يقضي معظم وقته في هذه الشقة، عاش حالة من الطلاق العاطفي، تيسر له استمرار تواجده في حياة أولاده وفي نفس الوقت ندر الاحتكاك بينه وبين زوجته، وهدأت الزوجة وارتاح الجميع بهذا الحل الوسط.

ومن القصص المدهشة التي سمعتها، رجلا أربعيني وله أولاد، اقترب الخلاف بينه وبين زوجته من مرحلة الطلاق، ولكنه لم يستطع التهور بقرار يؤذي أولاده وزوجته، فبحث عن عروس تطلقت بسبب عدم القدرة على الإنجاب، وأثناء التعارف أخبرها أنه لن يُطلق زوجته ولكن سوف يتزوج في بيت قريب من أولاده، وأنه يتمنى أن تحاول زوجته الثانية معه بكافة الوسائل أنْ تكسب قلب الزوجة الأولى ويصبحا أصدقاء، وأقر بأنَّ هذا صعب ولكن كلاهما سيكافح لهذا الهدف البعيد، تطلب الأمر صبرا طويلا

وزيـارات متكررة وتغاضي عن التصرفات الصغيرة والمشاعر السيئة والمتحاملة والتوبيخ القاسي، وأخيرا وجدت الزوجة الأولى أنَّ علاقتها بزوجها أصبحت أسهل وأقل حدة، ولم تجد تهديدا في الزوجة الثانية، لأنها لن تنجب، بل لاحظت انها تقترب من أولادها وتساعدهم بحماس وحنان، فقد توفر لها قناة تُفرغ فيها عاطفة الأمومة، وقبل مرور سنتين عرضت الزوجة الأولى أن تسكن الزوجة الثانية معهم، ووافق الجميع وعاشوا في سعادة وهناء.

* * *

هذا بالضبط ما يحتاجه المجتمع المصري، حلول خارج الصندوق، وفي نفس الوقت حلول لا تَجرح ولا تُبعد، ولكن تداوي وتُقَرِّب، حلول يتقدمها الإصرار على سلامة العلاقات، فالطلاق ليس الحل الوحيد، والنفور بين الضرائر ليس قانونا أبديا، ونسعى إلى راحة الجميع وسعادتهم مهما كانت الظروف.

نفسية الأهلي والزمالك

عندما أتخيل لوحة للمصريين اليوم، أجدها ترسم أحزابا متشاكسة، ينظر كل فريق إلى الأخر من الشاطئ البعيد ويرفض الانتقال إلى الشاطئ الآخر، فريق يشعر بالبرد، والآخر يشعر بالحر، وكل فريق يصف مشاعره الباردة أو الحارة، ويُنكر على الآخر مشاعره البعيدة عنه، ويظل كلاهما في عزلة شعورية عن الآخر.

يروي يحيى حقي في كتابه (خليها على الله)، أنه بعد تصريح فبراير عام (1922) بأنَّ مصر دولة مستقلة، حدث تمْصير للوظائف الحكومية، ورحل الموظفون الأجانب بعد تعويضهم ماليا، وكان يُسمح للموظف الأجنبي الحصول على عُطلة ثلاثة أشهر ونصف خارج مصر مدفوعة الراتب، وهذا مُبَرّرٌ لأنَّه ضرورة للموظف الأجنبي، ولكن حين أصبح الموظف مصريا كان المتوقع إلغاء هذا القانون، ولكن أصحاب المناصب الرفيعة احتفظوا به لصالحهم، فكان الموظف الكبير في الراتب والدرجة يسافر لأوروبا للترفيه والسياحة ويتلقى راتبه كاملا، بينما يُعاقب الموظف الصغير الذي لا يستطيع السفر للخارج، فيُخصم من راتبه حين يغيب يوما لعذر أو يتأخر دقائق.

في هذه اللوحة، فريق صغار الموظفين (الحرافيش) على ضفة شاطئهم، ينظرون بحسد ونِقْمة إلى فريق كبار الموظفين (الباشوات) المُنَعَّمين في الشاطئ الآخر، ولا يشعر أحد بأحد.

* * *

حين قامت حركة 1952 وحلت الجمهورية ورحلت المَلَكية، ألغيت الألقاب "الباشا، البيه"، ولكن بعد مرور ثلاثة أرباع قرن مازالت الألقاب حية، تدور على ألسنتنا لمخاطبة أصحاب المناصب والثروة، وهذه حالة مدهشة، تعكس حالة من ضعف الفرد المصري أمام صاحب السلطة، وتعكس أيضا الرغبة السلطوية لدى الأفراد لتلقي المدح والنفاق والألقاب.

* * *

في الستينيات في عصر "عبد الناصر"، أصدرت الدولة قانونا بتجميد إيجارات المساكن، وبمرور الأيام وزيادة الأسعار، أصبحت قيمة الإيجار تافهة جدا، فلجأ المُلاك لتعويض الخسارة، إلى أخذ مبلغ يُقَدَّر بعدة آلاف من الجنيهات باعتباره "خُلو رِجْل" من المستأجر الجديد، وكان المستأجر يدفعه عن طيب خاطر.

في كتاب "مكتوب على الجبين"، يَحكي "جلال أمين" أنَّ أخاه قام بتأجير شقة جميلة وبإيجار زهيد في شارع شهير بالزمالك ويطل

على النيل، قامت الحكومة بإصدار قانون يمنع الخُلو، وواجه الملاك معاملة قاسية وإهانة تصل للسجن حين يشكوهم مستأجر بأنهم قَبَضوا خُلوًا، وفي يوم، زاره مالك العمارة وأعطاه الخُلو الذي دفعه، فرفض وقال: "أنا دفعته عن طيب خاطر"، فقال له المالك: "أنت الوحيد من بين سكان العمارة الذي رفض استرداد المبلغ!". ولنتخيل بِناية بها ثلاثون ساكن ويَقبل كلهم استرداد المبلغ في مقابل ساكن واحد رفض لأنَّ ضميره حي.

ومازالت المشكلة قائمة حتى اليوم، شقة إيجارها خمسة جنيهات، وبجوارها شقق أخرى بنفس المساحة تؤجَّر بخمسة آلاف جنيه، وحين نستعين بالفِقه بتنوع مذاهبه نجده يؤيد الطرفين، الساكن والمالك، ولهذا نجد الساكن متدينا ويواظب على الصلاة بالمسجد ولا يشعر أنه يحمل ظلما في حق المالك الذي يصلي بجواره، ويدعو الله في سجوده أن ينهار المبنى على ساكنيه.

ومرة ثانية يتكرر في اللوحة المصرية نفس المشهد، فريق الأقلية المالكة للشقق على شاطئ وينظرون بحقد وقَهْر إلى فريق الأغلبية المؤجِّرة القريرة العين والمرتاحة الضمير، ولا يشعر أحد بأحد.

* * *

نُشر خبر على موقع تواصل خاص بالمهندسين، يعلن احتمال رفع ضريبة العاملين بالخارج من 55 جنيه إلى 1000 جنيه عن كل سنة،

وانهمرت التعليقات المتعارضة والمتناكدة والتي تُكَدِّس كل فريق على شاطئ:

- **الأول**: معارض.. وهم الذين سافروا إلى الخارج.
- **الثاني**: مؤيد.. وهم الذين لم يسافروا إلى الخارج.

ويندر أنْ ترى معارضا أو مؤيدا، يخرج عن السرب ويتحدث بمنطق، فالأول يَمَسه القرار، والثاني لا يمسه القرار ولكنه يجلس في الشاطئ الآخر ويرى أنَّ المسافر ثَري ولديه أموال.

المدهش أنَّ معاش النقابة كان قليلا وثابتا منذ سنوات طويلة، ولم يُلَمِّح القرار بأنَّ هذه الضريبة سوف تؤدي لزيادة المعاشات، والمؤيدون للقرار يعلمون أنَّ هذه الأموال لن تعطيهم مزيد خدمات ولن يصل لهم منها عائد.

ليس المقصود هنا موضوع الزيادة بل الموقف من القرار الذي أظهر انقسامهم طبقيا أو نفسيا بدون منطق، ودفعهم لمناقشة قرار الضريبة وليس مصيرها ولا استفادتهم منها.

ومرة ثالثة يتكرر في اللوحة المصرية نفس المشهد، وينقسم الناس إلى شاطئين، العامل بالخارج الذي انزعج من خبر الزيادة الحادة في الضريبة، والآخر الذي لم يغادر بلده ويَنظر إليه بحسد.

* * *

في بناية سكنية حاول مالك السطح أن يَبني غرفة، وكان القانون يمنحه الحق في بناء ثلث المساحة مع وضع سقف خفيف وغير إسمنتي، فعقد مجلس إدارة العمارة اجتماعا طارئا وحضر كل السكان، وهددوا باللجوء للشكاوى والقضاء لمنعه، وكان معهم ساكن يتميز بحماسه الشديد ضد بناء الغرفة، فعَدَل مالك السطح عن نية البناء وآثر السلامة، ومرت شهور ثم اشترى الساكن المتحمس السطح من مالكه، وبعد أشهر قليلة اتصل بالمالك السابق وقال له: "أتعجب منْ هؤلاء السُكَّان الأوغاد الذين يريدون منعي من بناء شقة فوق السطح!".

في اللوحات المعروضة، نضع أيدينا على مرض مِصري عارض وخطير، "الأنا الفردية" التي تنظر من شاطئها، والتي تهدد السلم المجتمعي وتفسد العلاقات، هذه الأنا تحتاج دراسة من علماء الاجتماع لمعرفة أسبابها ووسائل خلق مناخ ينشر التعاون والسلم.

* * *

القيم المصرية أصبحت مشوشة وبلا معالم واضحة، في الماضي كان السارق والخائن والآثم منبوذ، اليوم أصبحت له هيبة وأصبح قدوة للشباب مثل "أرسين لوبين"، الجميع يمسك بالسبحة ويتمتم مُسَبِّحا، فأصبح عسيرا التمييز بين التقي والشقي، في أغلب قضايا الدين هناك اختلاف الفتوى، وصار الاختلاف ثقوبا ينفذ منها

أصحاب الهوى لمآربهم، كما في الإيجار القديم، المالك والمؤاجر يمتلك فتوى تُسكن الضمير، ونسينا "استفت قلبك. والبر ما اطمأنت إليه النفس. واطمأن إليه القلب. والإثم ما حاك في القلب. وتردد في الصدر. وإن أفتاك الناس وأفتوك"، لو طَرَح الإنسان الفتوى جانبا واستفتى قلبه، سوف يعرف الحق من الباطل مِن توتر قلبه أو سكونه.

لا شك أن الخلل في القيم السائلة والتي لا بد أن تعود صلبة ولا تتسرب من الفروقات بين الآراء الفقهية، وأن نكف عن نظرية "ضعها في رأس عالِم واطلع سالم".

قالب الزوجية

صَرَّح الفيلسوف "عبد الوهاب المسيري" أنه تمتع بالحياة مع زوجته خمسين عاما، وقام خلالها بتجديد عقد الزواج ثلاث مرات، لا يقصد أنَّه طلقها ثم ردَّها إلى عِصمته، ولكن في بداية مراحل معينة من رحلة الحياة، مثل حصول أحدهما على الدكتوراه، كان يجلس معها يتحدثا في هدوء وسلام، يتبادلا استعراض رحلة الزواج التي قطعاها معا، كيف كان معها وكيف كانت معه، وما الذي يريد كل منهما أن يستمر أو يتوقف، وبعد حديث صريح وطويل، قد ينتهي سريعا أو بعد عدة لقاءات، يقول لها: "أنا أريد أن أستمر في رحلتنا الزوجية معا، فهل تقبلين؟ أم تفضلي أنْ تواصلي رحلة الحياة بدوني؟"، وفي كل مرة كان يوافق الطرفان على استمرار الحياة الزوجية.

في هذا الإجـراء ينهض كل منهما وقد عمل تحديث معلوماتي ومفاهيمي للعلاقة بينهما، يقول المسيري: "الزوجة ليست كالشقة الدائمة الإيجار، ليس حتما استمرار الزواج بنفس شروط التعاقد الأولى، ففي مسار العمر يحدث تغير للإثنين، كما أنَّ في مسار الشقة يحدث تحرك للأسعار والقيم، ولهذا يجب أن يتوقفا في محطات للمراجعة، حتى لا ينجرفا رغما عنهما، فأكثر الناس ينجرفون ويتألمون ويندمون".

الميثاق الغليظ بين نفوس إنسانية، تنفعل وتتفاعل فيخالطها شوائب قد تُكدرها، لو لم نُفتش في هذه النفوس كل فترة عما تراكم عليها، يصبح الميثاق الغليظ عِبئا وقيدا ومصدر يأسٍ، بدلا من أن يكون مودة ورحمة وجنة الدنيا التي لا يخطر بالبال مغادرتها.

يتفاعل الزوجان يوميا في ساقية واحدة، ويدير كل منهما جانبا منها، وهذه الساقية تأسرهما وتُقَوْلب حياتهما، وتتيبس المشاعر والأحاسيس، ولهذا كان من الـروتين الصباحي اليومي لعبد الوهاب المسيري وزوجته، الفوز مبكرا ب "لحظة الصفاء"، هكذا أطلق عليها هذا الاسم، يجلسان في الشرفة وحدهما، يتناولان فنجانا من القهوة بعيدا عن الأولاد، ويتحدثان في كل شيء عدا مشاكل الأولاد وأخبار اليوم والليلة المعتادة، يبتعد الأولاد عنهما ولا يقتربا، لأنهم يعرفون قُدسية هذه الدقائق اليومية، فهذه الجلسة نوع مختلف من العلاقة الحميمة بين الزوجين، بها يحافظان على الصداقة والصحبة والتفاهم بينهما.

* * *

سُئِل المفكر المصري "عبد الوهاب مطاوع" مُحرر باب "بريد الأهرام"، في لقاء صحفي عما يَنقص بيوتنا بوجه عام؟.. فقال:

"الحب.. فالزواج في المجتمعات الغربية مشروع لا يقوم إلا على

الحب ولا يبرره سواه، أما في مجتمعاتنا فهو في كثير من الأحيان مشروع تحركه رغبة الشاب في الاستقرار ورغبة الفتاة في الستر، وهي دوافع شريفة في حد ذاتها، لكنها وحدها لا تكفي لضمان السعادة خاصة حين تلح على أحد الطرفين فتدفعه للإقدام على مشروع الزواج بدون دراسة كافية للطرف الآخر، وأحيانا بلا مجرد القبول النفسي له، وهذه كارثة تنفرد بها مجتمعاتنا، حين يرى كثيرون مؤشرات الفشل واضحة خلال فترة الخطبة ثم يستمرون في المشروع كأنه قدر مكتوب لا حيلة لهم فيه أو كأنهم يسيرون نياما إلى مصير لا يستطيعون دفعه، والنتيجة مزيد من البيوت الخالية من الحب، وكثير من المشاكل".

الـزواج في بلادنا مغامرة إلى المجهول، وهذه المغامرة شديدة الخطورة، وتستغرق الحياة، وتثمر أولاد وبنات، هي مغامرة بالنفس وبالآخرين، ولكننا مع ذلك نندفع إليها بنفس الوسائل والأدوات والنفسية والأفكار دون تطوير، هذا هو سر كثرة الشقاء والشقاق في بيوتنا، ولهذا يكون الفراق غير جميل.

* * *

في عام 1975 عُرض فيلم "أريد حلا" لفاتن حمامة ورشدي أباظة، جسَّدت القصة مشكلة المرأة المصرية التي هي أسيرة الرجل، فيستطيع قهرها إلى بيت الطاعة بالقانون، ويحيا حرا دون قيود بينما لا تستطيع

المرأة الحصول على الطلاق خلال سنوات طويلة، وتسبب هذا الفيلم الذي كان وراءه إرادة سياسية في إصدار تعديلات لصالح المرأة في قانون الأحوال الشخصية، عندما شاهد الناس هذا الفيلم كانوا موزعين بين شعورين، الأول، التعاطف مع المرأة، والثاني، الشعور بالمؤامرة، فمن عادة الناس عدم الوثوق بمن يقفون وراء دعوات تحرير المرأة، هذا بالإضافة إلى أنَّ التيارات الدينية شنَّت هجوما على العمل السينمائي والقرار السياسي، وكنت متأثرا برأيهم، ولكن مع التطور الفكري أدركت فائدة هذا التعديل، وتعلمت من هذه التجربة أن أنظر للفكرة مجردة دون النظر إلى من يعرضها.

* * *

أكثر شكوتين سمعتهما هما الزوج المدمن والزوج الذي يعتدي بالضرب، الغريب أنَّ من تشتكي، مضى على زواجها سنوات ولديها عدد من الأولاد، وهذا يعني أنَّ أكثر النساء تُواصل مشروع الحياة الزوجية مهما طفح من عيوب الرجل، والزوج الذي يضرب زوجته مرة ولا يجد من يعاقبه، سوف يعتاد هذا الأسلوب.

عندما يدخل أحد في شركة مالية يضع احتمال للفشل ويعلم أن هناك خط رجعة، ولو فشل المشروع سوف يغادره ويستأنف الحياة، بالنسبة للرجل، لو تعسرت العلاقة الزوجية بينهما سوف يطلق مهما كانت التضحيات المادية، ثم يجتهد لبدء حياة أخرى جديدة،

ولكن الفتاة المصرية حين تتزوج تُدْفَع بنفسية "شرف البنت مثل عود الكبريت لا يوقد إلا مرة واحدة"، تدفع بنفسية السلعة التي لو أعيدت سوف تنال لقب "مُسْتَعْمَل أو خَرْج بيت" وهو بالضبط نفس تأثير لقب "مطلقة"، وهذا سر صبر المرأة على عيوب خطيرة لا يتصور أن يصبر عليها إنسان إلا في مجتمعنا المصري.

الرعب من الطلاق يجعل المرأة تصر على حياة زوجية قاسية ومؤلمة، ولهذا لا بد من تغيير عقلية ونفسية البنت منذ الطفولة، فلا بد أن تتعلم في بيتها وفي المجتمع وفي المدرسة أنها ليست سلعة، وأن حريتها وكرامتها لا يمكن المساس بهما.

* * *

لي صديق من المملكة العربية السعودية، حدثني أنه قاموا بتطوير عُرْف بدأ ينتشر بينهم، الأول، هو تأخير الإنجاب ستة أشهر أو عام حتى يتأكد الزوجان من توفر عوامل نجاح الحياة الزوجية، الثاني، أن "المطلقة والبِكْر" لهما نفس المعاملة والاعتبار بين الناس، فأعجبني كلامه وحَمَدت هذه العقلية التي تتعامل مع الواقع.

أعود إلى مجتمعنا المصري فأراه قاسيا على نفسه وأبنائه، متحاملا في نَظْرَتِه إلى المطلقة، أحمقا حين يلح على الزوجين في الإسراع بالإنجاب، مجتمع متشبع بأفكار ليست أفضل مما كان لدى مجتمع العصور الوسطى.

لتقليل مآسي الطلاق يجب المبادرة باتخاذ إجراءات وقائية بخصوص الزواج والإنجاب، وتتحول هذه الإجـراءات سريعا إلى عُرف مجتمعي، يقوم الزوجان بتناول وسائل تمنع الإنجاب لمدة ستة أشهر على الأقل، ولا يُتَخذ قرار الإنجاب إلا حين يتأكدا من:

- أنَّ الزوج/ الزوجة ليسا كارثة أو ابتلاء.
- أنَّ أسرة الزوج/ الزوجــة لن يُكَدِّرا حياتهما ولن يجلبوا المرض النفسي للزوجين بتدخلهما.
- وجود التوافق الجنسي الضروري للحياة الطبيعية.

هذا الإجراء ضروري لمنح الزوجين الحرية في الانفصال دون أولاد وبأقل الخسائر.

الزواج نعمة لا نحسن تقديرها بسبب الاعتياد والإلف، علينا أن نستحضر دهشة ومشاعر الذي رُدَّ إليه بصره، حين يرى الأشجار والسماء مرة ثانية، ودهشة ومشاعر من ينهض من مقعده بعد عجز شهور طويلة، نحن لا نندهش من المعتاد الذي في جوهره معجزة ونعمة، ولا أرى نعمة تعادل الحياة الزوجية، لا أنسى حماس وقول صديق لي بعد شهور قليلة من زواجه فقال: "تخيل أنَّني حين أريد تناول القهوة تعدها لي زوجتي وتقدمها لي؟ تخيل أنني أحيانا حين أريد شراء شيء أو إنجازه تقوم زوجتي به بدلا مني؟"

لم أستغرب كلام صديقي، فأنا أعرف أنه كان وحيدا، وقد أدهشه حدوث ما فقده في حياته.

الحكيم في باريس

يحكي الأديب والفيلسوف المصري "توفيق الحكيم" في كتابه "بين عصرين": أنَّه عقب ثورة 1919 بسنوات قليلة، كان يَدْرس في باريس مع مُبْتعثين مصريين، أبلغت السفارة طلابَ البعثة المصرية أنَّ الملك "فؤاد" سوف يأتي إلى باريس بالقطار، وأنَّ عليهم التجمع أمام المحطة لتحيّته والهتاف له، وكان هذا يعني أنَّ المصريين الذين اندمجوا في باريس النور والحرية؛ عليهم أنْ يبحثوا عن الطربوش الأحمر الذي لا بد أنْ يرتدوه في حضرة المَلك، وكان أغلبهم ألقى الطربوش بإهمال بمجرد وصوله باريس.

وصف "الحكيم" هذا المنظر في مشهد هزلي؛ وكل منهم يهرع ليُدبّر لنفسه طربوشا؛ ثم احتشدوا بالمحطة وأغلبهم يرتدي طربوشا ضيقا لنِصف رأسه، أو واسعا يُغطي أذنيه، ومنهم من استعار طربوشا مغربيا بلا زِر، وامتلأت المحطة بالرؤوس الحمراء حتى وصل الملك وحيَّوه، ثم انفضُّوا إلى خارج محطة القطار ليستردوا حياتهم الباريسية.

قرأت هذه الفقرة التي تصف مشهدا حدث من قرن كامل، وتساءلت: "ما الذي تغير؟ وكيف تحمَّلنا أنْ نظل على نفس الحال قرنا كاملا؟ وإلى كم قرن سوف نظل على نفس الحال؟"

* * *

في يوم قال له صديقه "سعيد": "سوف أريك أجمل فتاة في باريس"، وذهب معه حيث يسكن بالفندق؛ وشاهدا من بلكونة الفندق المقابل لهما، فتاة شديدة الجمال وتكشف كثيرا من جسدها، أخبره أنَّها تسكن مع مواطن ياباني، دُهش كثيرا وسأله عما يجعل هذا الجمال الصارخ يسكن مع هذا الياباني، فهذه يجب ألا تصاحب إلا أصحاب الفخامة، قال له "سعيد": "كله بثمنه"، وحكى له أنَّ هذا الياباني مُبتَعث من دولته لغرض غريب؛ فهو لم يكن يدرس أي شيء ولم يلتحق بأي جامعة.

ولكن مهمته أنْ يتصيَّد أي كتاب يصدر في باريس في مجال محدد من العلوم التطبيقية، وأن يُترجِمه إلى اليابانية ويُرسله إلى اليابان، وكان يتقاضى من حكومته مبلغا كبيرا من المال يكفي للفوز بمصاحبة تلك الفتاة طوال الوقت.

وكان مجرد عِلم "سعيد" بهذه المعلومة؛ يعني أنها ليست مهمة سِرِّية، وعَلِم منه أيضا أنَّ هناك غيره من اليابانيين المُبتعثين لنفس المهمة، ولكنهم متخصصون في ترجمة كتب علوم أخرى.

في القصتين، نرى الفرق بين:

ما فعلته حكومة الملك "فؤاد"، حين ألقت المبتعثين المصريين في أمواج فرنسا المادية والقِيَمِيّة والفكرية دون رقابة أو هدفية، فسقط

أغلب المبتعثين في بحر العسل الفرنسي، واستجابوا لمطاردة النساء وغرقوا في بحر الشك واستجابوا للتساؤل الحائرعن الإله.

وما فعلته اليابان التي عَرفت هدفها، فأرسلت مبتعثيها لتحقيق هدف اللحاق بأوربا بترجمة كل العلوم والفنون والأداب.

* * *

في عام 1853م اكتشفت اليابان أنَّ عملتها الذهبية تُسرق وتُنقل لأوربا، فطردت الأجانب ومنعت التبادل التجاري، فحاصرت أربع سفن حربية أمريكية، خليج طوكيو، وأجبرت اليابان على توقيع اتفاقية تجارية، وبعدها بسنوات قليلة أجبرتها بريطانيا وهولندا وفرنسا وروسيا على اتفاقيات مشابهة للتبادل التجاري.

هذا الحادث كان التفسير للمشهد الذي حكاه "توفيق الحكيم"، فإجبار اليابان كان مُهينا، ولهذا كان الانتقام بأنْ أرسلت أولادها لبلاد الغرب وعادوا بكل شيء، وفي خلال عشرين عام كانت اليابان قوة عظمى ولها أسطول ينافس الأسطول الأمريكي.

عندما أرادت اليابان تركيب مفاعلا سلميا للطاقة، استعانت بالخبرة الأمريكية، قامت بتعيين فني ياباني يصحب كل فني أمريكي كظله، تم تركيب كاميرات سرية في كل مكان بحيث يتم تسجيل كل خطوة، انتهى تركيب المفاعل، تعاقد اليابانيون بعدها على مفاعل

آخر وتكرر السيناريو، رغم أنَّهم بعد المرة الثانية كانوا واثقين من قدرتهم على تركيب مفاعل ياباني، إلا أنهم تعاقدوا على المفاعل الثالث، بعد ذلك اكتفت اليابان في هذا المجال وأصبحت تُصَدّر خبرة المفاعلات النووية.

في مصر، وإلى اليوم، عندما نريد بناء محطة كهرباء أو منشأة صناعية أقل تكنولوجيا من المفاعل النووي، نقوم بالتعاقد بنظام تسليم مفتاح، أي تقوم الشركة الأجنبية بكل شيء من مدني وميكانيكي وكهربائي، ربما تطور الوضع قليلا وأصبحنا نقوم بتجميع وتركيب وتصنيع بعض المعدات، لكن مازال الاستنزاف مستمر.

ولا نحتاج التذكير أننا إلى اليوم نستدعي مدرب كرة قدم أجنبي لتدريب الفرق المصرية، ويتلقى راتبه الفلكي بالدولار.

* * *

وفي ختام هذا الاستعراض نستطيع أن نقارن بين ردود أفعال الدول والشعوب؛ فهناك شعوب تلعب في الطين وأخرى تذاكر وتسهر وتضحي وتَرْقَى.

قامت اليابان مع أول هزيمة وقهر بإطفاء حريق التخلف ونهصت خلال عقود قليلة، بينما بلادنا العربية اندلعت فيها حرائق كثيرة متوالية، ومع ذلك ما الذي فعلناه حين نشب الحريق الأول زمن

الحملة الفرنسية!، وما الذي فعلناه حين نشب الحريق الثاني والثالث والعاشر!، ما الذي سنفعله حين تنشب الحرائق التي يطلق شرارتها الزمان كل فترة كي نفيق وكي نغير ردود أفعالنا؟ نحن نستدفئ بالحريق حتى اليوم ونُخَيِّم حوله ونتسامر.

المتصدرون من رجال الدين والسياسة عبر القرنين الأخيرين، يندر فيهم المخلصون والخبراء، فقدنا الإخلاص النبيل مبكرا، فالنخبة يجب أن تكون واعية وليست خبيثة وليست عَبيطة.

الغانية و العبيط

من روائع السينما المصرية، فيلم "مبروك وبلبل"، رجل وأمرأة، الأول "مبروك"، شاب لا يتمتع بقوى عقلية جيدة " عبيط" كما يطلق على أمثاله في مصر، لكنه يملك جَسَدا طبيعيا وسليما، ولديه ميراث يَكفيه ويُغْنيه عن الناس، الثانية "بلبل"، فتاة ليل، تحيا على استهلاك جسدها، وقد تعبت من الإهانة والمشقَّة والحياة الآثمة.

الفتى العبيط مكتمل الذكورة، ومتيسرا ماليا، وينقصه فقط العقل، والفتاة جميلة وعاقلة ومجروحة في سمعتها ويتعذر زواجها من رجل يسترها وينفق عليها، فتزوجت الغانية من العبيط، واحتمت بمميزاته، ولم يزعجها نقائصه، بل لم تشعر أنَّها ينقصها شيء، وعاشا في سعادة.

مشكلة الفتاة كانت مستحيلة، ثم أصبحت يسيرة حين تزوجت الفتى الذي يستهين به الناس، ومشكلة الفتى كانت مستحيلة، ففحولته ستؤدي به إلى أفعال شائنة ويتسبب في اضطراب بين الناس، فكان سعادته وضبط سلوكه مع تلك المرأة اليائسة.. هذه هي خلاصة الفيلم، التي بُنيت أحداثه على تلك المفارقة، ولو كان سيناريو الفيلم أنَّ: "امرأة جميلة تتزوج شخصا عبيطا"؛ لفشل

الفيلم وفقد جوهره ومعقوليته، فالشاب ينقصه أهم جوهر وهو العقل، لذا فلا بد من إيداع نقص في الفتاة يوازن النقص الذي في الشاب، وهكذا يجب أن نفهم الدنيا.

الحياة تعارف وتكامل، فنحن نتفاوت في الحاجات والإمكانات، ولا يمكن لأحد أن يتكامل مع نفسه، والعائق بيننا وبين التكامل الحكيم، عادات وأعراف المجتمع والطبقية النفسية والإجتماعية، والمجتمع متطفل ويتدخل فيما لا يعنيه.

* * *

في بريد الأهرام الذي يحرره "عبد الوهاب مطاوع" رسالة بعنوان "معادن الرجال"، تحكي قصة رجل يمتلك عمارة بالقاهرة وأرض زراعية بالدلتا، وعنده ثلاث بنات، مهندسة وطبيبة وطالبة جامعية، وبعد أن زُفَّت الكبرى بأيام صحا البيت فوجدا الأب قد فارق الحياة، وصرخت الأم والإبنتان، فهرع إلى الشقة رجال من العمارة، وأدركوا حيرة النساء وقلة خبرتهم، فقاموا بتوجيه من شاب فيهم، بكل إجراءات الدفن و العزاء، وكانوا موظفين بشركة قطاع عام مقرها الشقتين في الدور الأرضي، وبعد يومين جاء الشاب، وكانت الإبنة الطبيبة قد أعطته مالا لينفقه على الإجراءات، فأعطاها ورقة بالحساب وبقية المبلغ، وكان الباقي كثير، مما يشير إلى أمانته، وبعدها غرقت الأم والبنات في إجراءات كثيرة كان يقوم بها الأب، تحصيل إيجار العمارة والأرض وأوراق رسمية يتكرر استخراجها وضروريات أخرى،

شق الأمر عليهن، وكان الأقارب انفضوا عنهن وانشغلوا بشؤونهم الخاصة، فاقترحت الطبيبة على الأم أنْ تتزوج الشاب الموظف "دبلوم التجارة"، ويتولى شؤونهن، وكان الاقتراح صعب ولكن استحسنته الأم، وتزوجت الطبيبة من الموظف الذي كان متدينا وخلوقا، في البداية استنكرت العائلة هذا الزواج، ومع الأيام نال هذا الزوج احترام الجميع وأصبح محل الشورى فيما يطرأ من مشكلات في العائلة.

عندما قرأ "عبد الوهاب مطاوع" القصة حرص أن ينهيها بكلمات يؤكد بها "أن هذا التصرف مغامرة"، وليست كل مغامرة عاقبتها سليمة كما في القصة، فالفروق بين الزوج والزوجة كبير ولا يسهل تعويضه.

لم أقتنع بهذا الرد، وكنت أفضل أنْ يشجع تكرار هذه القصة على أساس أنَّ الفروق الطبقية سواء مال أو مؤهل دراسي لا يمكن أنْ يكون عائق ثابت، فهذه الفتاة مال قلبها لهذا الفتى، وتحتاج من يتولى شؤونهم، فاجتمعت العاطفة مع المصلحة، وفي الإنسان مؤهلات شخصية وأخلاقية تستطيع سد كثير من الفوارق المادية.

هذه الفتاة التي أبحث عنها في فتياتنا، قوية واعية شجاعة، لا يهمها كلام الناس، ليس لديها العُقَد التي في بناتنا وأبنائنا، لم يسحرها وَهْم سمو المؤهل وعائق التفاوت الطَبقي، لم تفتنها فكرة أنَّ "العِرق دساس"، استجابت لقلبها وعقلها معا، فتاة لم "تفعل - تخشى - تغتر - تتردد - تنهزم – تخجل" .... مثل الناس

* * *

هناك ظاهرة مشتركة في كل المجتمعات وهي، أننا لا نتنازل إلا حين نفقد شيئا، وربما أشياء، يظل الغرور سائدا ومتحكما حتى تبدأ سلسلة النقص أو الفقد أو العجز، ولو تسللنا إلى الدماغ العربي لوجدناه خاضعا لبرنامج عنصري طبقي، فالحالة الوحيدة المعقولة التي يتيسر لنا مشاهدة زفاف شاب إلى أرملة تكبره وربما لها أولاد، حين يتوفى الأخ، فيتطوع أخوه الشاب بتحريض من العائلة ليتزوج أرملة أخيه، هذه هي الحالة الوحيدة التي لن ينظر أحد إلى فارق السن ولا المؤهل ولا العُذرية، فالحدَث فَرَضَ عليهم إجراء يُعيد التوازن إلى الأسرة التي رحل عائلها.

* * *

سبق لي أن حضرت زِفافا لابن صديقي، ووصفت هذا الزفاف بالشجاع والحكيم، شاب حديث التخرج تزوج من سيدة مطلقة تكبره سنًّا ولها طفل، وعندما تعجبت، أجابني صديقي "إنها جارة لهم في السكن"، ولما وجدني ما زلت محتفظا بدهشتي وأنتظر مزيد تبرير، قال: سأخبرك بالسر، "هذا أصغر أبنائي، ولأننا نعرف إمكاناته، قررنا هذا الزواج، فابني لم ينضج بعد، ولقد قمنا بتدليله ونَمَت شخصيته برعونة فأصبح في حاجة إلى من يدعمه ويحتويه، سوف ينفعه الزواج ممن تحمل صفات ومهام الزوجة والأم في نفس الوقت، ولو تزوج فتاة من عمره أو تصغره فسوف تفشل العلاقة،

ولكان شقاق وطلاق وما يتبعهما، ولأني وزوجتي نعرف إمكاناته، اتفقنا على ذلك الزواج، فعرضنا عليه الفكرة ووافق، وأعتقد أن زوجته تملك من التجربة والنضج ما يجعلها تدعمه وتُسعده".

وها قد مرت عشر سنوات والزواج ناجح ومثمر والكل سعيد. لقد كان تصرف صديقي نادرا وحكيما، ولهذا خُلقت الحكمة، كي توفر علينا جِراح التجارب الفاشلة، ولنستفيد من الفروق بيننا، ووقتها سوف تتحول تلك الفروق من عيب إلى ميزة؛ فالله تعالى لم يخلقنا لنتطابق ولكن لنتكامل، ولا نتكامل إلا بنقص.

* * *

أتذكر الأغنية الشهيرة "ما اخدش العجوز أنا"، والمثل "يا واخد القِرد على ماله يغور المال ويبقى القِرد على حاله"

الأمثال الشعبية والأغاني لهما تأثير كبير في تكوين أفكارنا، وتقيم قضبان سِجن المجتمع حولنا، حتى أصبح سِجن سبع طبقات وأستك، الأصل في الإنسان أنه حر، وهذه ميزة المجتمع الأوربي والأمريكي، لا يتدخلون في اختيارات الناس مهما كانت مدهشة ومستنكرة، عدا تهمة معاداة السامية ونقد إسرائيل مهما فعلت وإنكار المحرقة "الهولوكوست"، هذه هي المحرمات الوحيدة.

لنتخيل في مجتمعنا؛

"زواج شاب وامرأة تجاوزت الخمسين أو أكثر"

"زواج فتاة ورجل خمسيني أو ستيني"

الشاب يحتاج المال وربما مميزات أخرى لدى الشيخ، والشيخ يحتاج ما يفتقده من مشاعر أو حاجات، حتى لو كانت تُسمى مراهقة متاخرة، لا يهم، المحك هو أنَّ شخصان بالغان عاقلان اتفقا على الزواج لتتكامل حاجات لهما، ماذا سيقول المجتمع؟، المجتمع سوف يستنكر ويتهم الفتى والفتاة، بالطمع وضعف العقل والانتهازية وأنهم باعوا أنفسهم برخيص، والمجتمع سوف يتهم الطرف الآخر العجوز بأنه، شهواني وفقد عقله على كبر سنه، وأنه جشع ووغد.

ولكن ماذا يقول الدين؟، ينظر الدين فقط لصحة العقد ويحترم إرادة الطرفين، ولو نظرنا دون توتر أو تحامل لتلك القصة لوجدنا أنها طبيعية، فالفتى والفتاة يعرفان أنهما سيقضيان سنينا معدودة في ترف ونعيم مادي، وفي نفس الوقت لو حدث طلاق أو موت للطرف الآخر، فسوف تبدأ حياة أخرى بإمكانات ثرية، تفكير عقلاني بإرادة حرة.

الرجل والمرأة العجوز، يعرفان أنهما فقدا الشباب وأنها سنوات معدودة من السعادة، ثم تختم حياتهما، وربما يُخلف الله ظن الجميع، فلله دائما كلمته الفاصلة، ولكن، لماذا لا ندعهم يختارون ويتحملون

نتيجة اختيارهم؟، ففي مجتمعنا لا أحد يختار، الكل يسير على قضبان ولا يجرب السير على الأرض، نحن مجتمع وأفراد جبناء بامتياز.

مجتمع تسيل على شفاههم جملة، "هنروح فين من كلام الناس"، مجتمع قهر الأفراد أنفسهم قبل أن تَقْهرهم السلطة، مجتمع متطفل فضولي بِنَفَسٍ شرير، ومع ذلك نظن أنَّ السُلطة وحدها هي السبب في كل شر، ليكن الناس أحرارا في اختيارهم وفق ظروفهم، وليهتم كل منا بشأنه، ولنفصل بين الديني والمجتمعي.

فالمجتمع صنمي.. وعلينا الكف عن عبادة الأصنام.

خلط واختلاط

ماذا لو حدث اختلاف في حجم أعضاء الإنسان؟ تتضخم الأنف وتتقلص الرأس وتلتصق أصابع اليد فتفقد حرية الحركة منفردة، يتشوه الإنسان وتتعطل وظائف الأعضاء وترتبك الحياة.

بمثل هذا المثال يكون أثر تبدل القيم، حين نقدم القيم الصغرى ونؤخر القيم الكبرى، ونحكم على الخطيئة كأنها جُنحة، وعلى الخطأ كأنه جناية، ويَشقى المجتمع، ولهذا مجتمعنا يعاني.

* * *

في حديث لي مع شاب خليجي، شكا صعوبة اختيار الزوجة المناسبة، لأنه حسب تقاليد بلاده تتاح له "الرؤية الشرعية" التي لا تمنحهما الفرصة والوقت الكافي للتعارف، هذا بالإضافة إلى ما يترتب على تكرار الرفض من حَرَج وتغير القلوب بين العائلات. استمعت إليه وكُلي تعاطف وتَفَهّم، ثم سألته؛ "ماذا تريد؟"، قال: "أريد فرصة أكبر للتعارف"، قلت له: "حسنا، ولكن لي سؤال": "طالما خُضت المعاناة وتذوقت التجربة وتملك هذا العقل المتفتح، هل توافق على منح فرصة أكبر لمن يتقدم لأختك؟"، فقال في صوت عَرِيض: "لا طبعا".

فقفز إلى خيالي الحديث الذي طلب فيه شاب من الرسول ﷺ، أنْ يسمح له بالزنا فقال له: "أترضاه لأختك.. لأمك".

ثم سألته: "لو صدرت فتوى من علماء الدين بإجراءات تُيسِّر تكرار اللقاء وتقلل قيود التعارف بين الطرفين، هل توافق؟"، قال: "نعم، ولكن لا بد أن أتأكد أنها انتشرت بين الناس، فلا أكون أول من يطبقها".

أدهشني عدم شعوره بالتناقض، فالقيمة الكبرى عنده هي نظرة المجتمع وكلام الناس.

من المفارقات، أنَّ الخطأ في قرار اختيار الزوجة يترتب عليه طلاق وشِقاق وألم للأبناء ومشاعر سيئة بين العائلتين، فكيف يصبر الناس على تلك الآثار القاسية والتي تؤلم الجميع، ولا يخطر ببالهم مراجعة بدايات هذه المآسي التي هي إجراءات التعارف، أليس المجتمع هو نحن!

* * *

في مدينة في صعيد مصر، تم عقد قران بين شاب وفتاة، وتأجل موعد الزفاف للعام القادم، وانجرف الزوجان إلى لقاء جسدي بينهما، ولم تنتبه البنت إلى حَمْلِها إلا بعد انتهاء الشهر الثالث، فأخبرت أمها التي أسرعت لأم الشاب، وكان تعجيل الزواج مستحيلا في عُرفهم لأنَّه سوف يثير التساؤلات، ويكتشف الناس الأمر حين يَحدث الإنجاب مبكرا، ورغم أنّهما شرْعا زوجان، إلا أنَّ للمجتمع شرعه العنيد، وسوف تلوك الألسن الحدث كفضيحة، فكان القرار أنْ تسافر الأم

مع ابنتها للقاهرة بحجة شراء بعض مستلزمات العروس، وتُجري عملية الإجهاض، وبالفعل تم قتل الجنين رغم علمهم بحُرمة الإجهاض في هذه المرحلة من الحمل.

في هذه القصة الواقعية، كان متوقعا أن تكون القيمة الكبرى هي الدين، والدين يأمر أنْ يتم الزِفاف، ولكن العرف المجتمعي الذي له الكلمة الكبرى يرفض هذا الإجراء، ونظرا إلى أنَّ البديل سيكون فضيحة وعِراك ودماء وثارات قد تمتد سنينا طويلة، كان قرار قتل الجنين.

القصة تجسد صورة أخرى لتقديم نظرة المجتمع على الدين نفسه، وبرز بوضوح مصطلح "صنم المجتمع"، فالناس يعبدون إله السماء ويطيعون صنمهم المجتمعي.

* * *

في الآية القرآنية في سورة العنكبوت؛ (وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهَّ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ "25")

يخبر إبراهيم "عليه السلام" قومه أنَّهم عبدوا الأصنام مودة بينهم وليس عن إيمان وبرهان، وجعلوا تمسكهم بالأوثان رايةَ تَوَحدِهم وعلامَة مودتهم، وهذه لفتة قرآنية نفسية بارعة، حيث تنسب سبب الكفر إلى نفاق وإملاء المجتمع.

* * *

في السيرة النبوية، عندما همَّ الرسول ﷺ بفتح مكة، أوحى إليه الله تعالى أنَّ الصحابي "حاطب بن أبي بلتعة" بعث رسالة إلى قريش يفشي خبر الغزوة، وبعد العثور على الرسالة سأله الرسول ﷺ فقال: "يا رسول الله لا تعجل عليَّ إني كنت امرأ ملصقا في قريش (كنت حليفا ولم أكن من أنفسها) وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدا يحمون قرابتي ولم أفعله ارتدادا عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام" فقال ﷺ أما إنه قد صدقكم فقال عمر يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق فقال إنه قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرا فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم فأنزل الله الآية: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ " (1) الممتحنة.

في هذه القصة، لم يذكر الله تعالى في القرآن الحادث ولا إسم حاطب، ورغم أنها تعتبر خيانة عظمى، إلا أنَّ الرسول ﷺ غفر له بشفاعة سابق جهاده مع المسلمين.

لا يحاسب الإسلام الإنسان بالخطأ الأخير، بل ينظر لرصيده من سابق الخير، فلا يمسح تاريخه لخطأ انفرط منه في لحظة ضعف، ولم تذكر السيرة أنَّ معاملة المسلمين لحاطب تغيرت، بل تخطى المجتمع ما حدث ولم يُؤَثِّر على مكانته بين المسلمين.

مجتمع اليوم يخفي ذنوبه ويكتمها، فتتفاقم وتزداد فسادا وإفسادا، وتَنبت فينا خبائث طباع تسري بيننا وتفسد حياتنا.

المجتمع النبوي ينشر ذنوبه ويطهرها ويعزلها عن الأشخاص، لا يلصق بالإنسان الذنب للأبد ولا يصمه بعاره، فالإنسان أكرم من أي قيمة، ويفعل الخير والشر ويتمتع بباب التوبة المفتوح رحمة للعالمين.

* * *

كل المسلمين يستبشعون أكل لحم الخنزير، ويقشعر بدنهم لتخيل أن يدخل في جوفهم، يستعظموه ككبيرة، لو قمنا بمقارنة هذا بشعور المسلمين تجاه الغيبة، نجدنا نستسهل الغيبة سواء للمسلم أو غير المسلم، فالغيبة تصغر في مخيلتنا مقارنة بلحم الخنزير أو الخمر.

ولكن، شرعا وقرآنيا أيهما أبشع؟

بالقرآن الغيبة أكبر بمراحل كبيرة من أكل لحم الخنزير، فالغيبة أكل لحم بشر، أكل لحم أخيه ميتة، حتي الخنزير قد تأكل منه ما يدفع عنك الموت عند الاضطرار، ونخوض في الغيبة عشرات السنين ولا نأكل لحم الخنزير مرة في حياتنا.

دعوة لترتيب القيم ومراجعة المفاهيم.

* * *

يشتهر عندنا الرئيس كلينتون بفضيحة ليونيسكي (Lewinsky scandal)، هي فضيحة جنسية سياسية أمريكية، اختتم كلينتون خطابا متلفزا بقوله بأنه " لم يقم علاقة مع ليوينسكي "، أجريت تحقيقات إضافية وأدت إلى اتهام كلينتون بالحنث باليمين، تم احتجاز كلينتون بتهمة ازدراء المحكمة من قبل القاضي ، كما تم تغريمه بمبلغ 90.000 دولار، واشتهر تعليق زوجته هيلاري كلينتون: "مشكلة كلينتون أنه يفتح سوستة البنطلون كلما رأى أمرأة جميلة".

نظن أن جوهر القصة هي العلاقة الجنسية، في حين لم ننتبه لعبارات "الحنث باليمين وإعطاء شهادة مضللة" ، والسبب يرجع إلى أنَّ أوزان القيم عندنا وعندهم معكوسة،عندهم، " قيمة الكذب في المقدمة ولا تسامح فيها "،عندنا، "قيمة الفضيلة الجسدية في المقدمة وتمسح كل ما عداها"، فرغم ما نسميه فضيحة بجلاجل لكلينتون إلا أنهم أعتبروه ضعفا بشري لا يليق وفقط، أمَّا الكذب أمام القضاء والشعب، فخطأ قِيَمي مجتمعي لا تسامح فيه.

عندنا الحاكم الإله الذي ينادي على مسرور السياف، وعندهم الحاكم الموظف الذي يقف بأدب وهيبة أمام الشعب.

عندنا، "الحاكم واحد صحيح والشعب صفر"، وعندهم، الشعب رقم صحيح بينما يصبح الحاكم صفرا حين يخل بوظيفته".

وهذه هي قيم الإسلام القرآنية التي سهونا عنها وهجرناها تحت ضغط المُلك العضوض.

ترتيب القيم وفق المنهج القرآني أصبح ضرورة كي نستعيد التوازن في حياتنا وديننا ومجتمعنا.

وجهة نظر

عندما قامت دولة باكستان بقيادة "محمد علي جناح"، سرعان ما حدث انقلاب عسكري ذو توجه علماني بقيادة "أيوب خان"، بعد سنوات قليلة أراد شَرْعنة الانقلاب بإجراء انتخابات، وكان مؤسس باكستان قد تُوفي، وكانت له أخت تمتلك شعبية كبيرة وأسمها "فاطمة جناح"، ومعروف أنَّه كان يستشيرها في الأمور السياسية، فترشحت وساندها "أبو الأعلى المودودي" زعيم الجماعة الإسلامية، الذي أصدر فتوى قال فيها:

"الحاكم يجب أن يكون ذكرا وله دين، وأمامنا مرشحان، الأول، ذكر ولكن ليس له دين، والثانية، لها دين ولكن تفتقد الذكورة، ولما كان الدين أهم من الذكورة؛ وجب انتخاب (فاطمة جناح)".

وأحدثت تلك الفتوى جدلا كبيرا في بلاد العرب والبلاد الإسلامية عامة، اتهموا "المودودي" بمخالفة الدين حين أفتى بنصرة ترشيح امرأة للرئاسة.

قام "أيوب خان" الذي يمثل السلطة؛ بالاستعانة ببعض علماء الدين الذين أصدروا فتاوى ضد ترشيح المرأة، ولا يفل الحديد إلا الحديد، ولا تُحارب الفتوى إلا بالفتوى، ثم استعان بالتزوير ونجح.

المثير للدهشة أنَّ القرآن الكريم حين ذكر قصة ملكة سبأ، عرضها في صورة مَدْح واستحسان لعقلها واستعانتها بالشورى ورِفقها بالناس واستجابتها السريعة لنداء الإيمان، فكانت نموذجا ومثالا للحاكم الصالح الرشيد.

والسؤال الذي تطرحه هذه القصة هو: "هل الفتوى دين أو رأي في الدين؟".

* * *

في الفقه الشيعي، للدفن في كربلاء والنجف فضل عظيم، فكان تَزَاُحم الحجاج القادمين من أسيا وإيران كثيف، وكان نقل الجنائز داخل وخارج البلاد من أهم أسباب الأوبئة التي تضرب كربلاء والنجف ، وكثيرا ما يمتد الوباء إلى بغداد ويموت خلق كثير، وأشهر الأوبئة تفشَّت من عام 1831/ 1834م.

أصدرت السلطة العثمانية مرسوما بمنع نقل الجنائز فأحدث غضبا كبيرا بين الشيعة، ثم أثناء زيارة ملك إيران إلى العراق، تم الاتفاق على السماح بنقل الجثث بشرط أنْ يمر عام على الوفاة، حتى يتخلص الجسد من اللحم ولا يتبقى سوى العظم، فيكون خفيفا وخاليا من الميكروبات، قاوم رجال الدين والمُعَمَّمون آنذاك هذا القرار واتهموا المسؤولين بتعزيز هدف الكفار الغربيين، ومنع المؤمنين الشيعة من أداء واجباتهم الدينية، وأفتوا بحرمة هذا الاجراء، فبدأت عملية

مدهشة ومضحكة ومفزعة، نشأت بسببها تجارة من نوع غريب، وتَفَرَّع منها عدة حِرَف من نوع أغرب.

بمجرد الوفاة يقوم متخصصون بتشفية العظام بنزع اللحم، ثم وضع العظم في مادة كيميائية بحيث تجعل هيئته ولونه يوهِما مفتش الحُدود أنه توفي منذ عام، ثم يضع اللحم في كيس ويتم إخفاءه مع الشخص الذي يصحب العظام في الرحلة من أهله، ويمر العظم بسلام من خلال أماكن التفتيش العثمانية، بينما تستلزم عملية تهريب أكياس اللحم رشاوى وخبراء في التهريب، وعند الدفن يُجمَع العظام واللحم معا في المقبرة، وكانت هذه العملية خطيرة، لأن اللحم الذي يسافر في كيس يتعفن ويكون مادة سهلة للأمراض والأوبئة.

نعود ونتساءل؛ هل الفتوى دين أو رأي في الدين؟

* * *

عام 1853م، اندلع عُنف في القدس بين الكاثوليك والأرثوذوكس، فأرسل قيصر روسيا إنذارا للسلطان العثماني يطلب الاعتراف رسميا بأَنَّه حامي جميع الرعايا الأرثوذوكس في البلاد العثمانية، ورفض السلطان الإنذار، فكانت حرب القِرْم التي ساندته فيها إنجلترا وفرنسا، في هذه الفترة صدرت الفتاوى لتبرير وإباحة الاستعانة بغير المسلم في الحروب، وهو نفس المشهد حين صدرت الفتاوى بشأن الاستعانة بالأمريكان في حرب الخليج، فالتاريخ يعيد نفسه.

قال السفير البريطاني لرشيد باشا (الصدر الأعظم):

"نحن ندافع عنكم ضد روسيا، ولكنكم تبررون لروسيا العدوان بأنكم لا تقبلوا شهادة الذمي على المسلم، مع أنكم تَبْسطون سيطرتكم على بلاد أوربية وجميع سكانها مسيحيون، والمسلمون قليلون، وهذا يجعل المسلم يعتدي ولا يخاف العقاب".

أرسل "رشيد باشا" سؤالا لمجلس العلماء:

"ألا يمكن قبول شهادة غير المسلم في المحلات التي لا يوجد بها سكان مسلمون؟"

فرد العلماء: "لا يوجد في الفقه الإسلامي حلا لهذه المشكلة"، فلما أصر رشيد باشا على إيجاد حل قال العلماء:

"نقترح حلا للمشكلة بأن يُصدر السلطان أمرا بقبول شهادة غير المسلم، وبذا يصبح الأمر شرعيا لأنه صادر من ولي الأمر"

هنا عجزت الفتوى عن ملاحقة تغيرات العصر، بسبب توقف الاجتهاد منذ قرون عديدة، فكان الحل كارثيا، لأنه جعل للسلطان الحق الإلهي في إصدار تشريع ديني وليس قانوني، على الرغم أنه من البديهي قرآنيا أنَّ هذا الحق لله وحده.

ونعود فنتساءل؛ هل الفتوى دين أو رأي في الدين؟

* * *

حين نشبت الحرب بين "محمد علي باشا"، والدولة العثمانية، صدرت منشورات تحمل فتاوى من فقهاء الدولة العثمانية بضرورة تأديب "محمد علي"، لخروجه عليها وخَرْقِه للدين وانخِلاعه من الإسلام، وصحب ذلك أدلة دينية قوية من القرآن والحديث والفقه، وفي نفس الوقت أصدر الأزهر الشريف فتاوى مضادة، بنفس الطريقة تبرر محاربة "محمد علي" للعثمانيين الذين ظلموا وأفسدوا، ويجب طردهم من مصر والشام، واحتار أهل الشام والعراق بين تلك الفتاوى.

ونعود فنتساءل؛ هل الفتوى دين أو رأي في الدين؟

* * *

في عام 1808م، ونتيجة تكرار هزائم العثمانيين الساحقة ومع توالي إتساع روسيا على حسابهم، واقتراب حلم روسيا باسترداد القسطنطينية، حاول كثير من السلاطين أنْ يقوموا بتحديث الجيش الإنكشارية، وفشل السلاطين بسبب العلماء الذين كانوا يُحَرّضون الجيش ويُحَذّرونهم من التشبه بالكفار في ملابسهم وأدواتهم ونظامهم، إلى أنْ كانت المبادرة من "سليم الثالث"، بأول خطوات التحديث، فأسرع المفتي والعلماء إلى الجنود وحرَّضوهم، فاجتمع الجنود والمفتي وبعض العلماء في الميدان ووضعوا القُدور علامة على العصيان، ثم قرأوا على الناس أسماء رؤوس الفتنة ومؤيدي البدعة من الوزراء والمسؤولين، وهرعوا إلى بيوتهم وقطعوا رؤسهم

وأحضروها إلى الميدان، ثم أفتى مفتي الدولة العثمانية بأنَّ أي خليفة، يُدخل أنظمة الغرب وطُرقهم في الدولة، ويجبر رعاياه على اتباعها، غير صالح للولاية، فعزلوا "سليم الثالث"، ثم قتلوه ، هذه لقطة بسيطة من توريط الفتوى في السياسة.

وهذا مثال آخر يجرّنا للتساؤل: هل الفتوى دين أو رأي في الدين!

* * *

لو اتفقنا على أن الفتوى رأي، لأستراح الجميع ولسهل دراسة ونقد الفتاوى، فتتراجع القدسية عنها، ونتخفف من سيطرة السياسة على المذاهب ورجال الدين، ويسهل فتح باب الاجتهاد ثانية لمجاراة تغيرات الظروف والأزمان واختلاف الطبائع والأفهام.

العاطفة والقطط

لم أقابل في حياتي مثل صديقي في إحساسِه وذَوقه، كان يطارد كل جميل، وكأنَّ له قرون استشعار غريزية تلتقط إشارات الجمال، لهذا كنت محظوظا بصداقته، نادرا ما يكون الجمال صادحا مثل الشمس، وغالبا ما يتخفى وراء أستار ومخابئ، ليُحَفِّز فُضول واجتهاد عُشَّاقه، وحين يلتقطه صديقي، لا بد أنْ يشاركني فيه.

في بدايات الشباب كانت تَجْمعنا غرفة الصالون في منزل والده، قال لي وهو يريد مفاجأتي: "سوف أسمعك شيئا رائعا"، لم تكن مفاجأة غير متوقعة، فأنا أعلم أنه يكثر السفر إلى القاهرة هذه الأيام، لا بد أنه يبحث عن شيء نادر كعادته ليحوزه، أخرج الكاسيت ووضع فيه الشريط - لم يكن الدش والموبايل والنت قد ظهروا بعد - قال: "سوف أسمعك أغاني لم تسمعها من قبل".

أسمعني أغنية "عدى النهار" بصوت عبد الحليم وأشعار الأبنودي وألحان بليغ حمدي، كانت معاهدة السلام قد وقِّعَت منذ سنوات قليلة، ومن شروطها منع إذاعة الأغاني الوطنية، وهناك شروط أخرى تتحسس إسرائيل أن تكون سببا لبعث روح العداء للصهاينة، سمعت الأغنية وكأني في عالم سرمدي، كيف استطاع هذا الرجل أن يُبدع تلك الكلمات:

"وبلدنا عا الترعة بتغسل شعرها"

"جاها نهار ما قدرش يدفع مهرها"

ثم أتبعها صديقي قبل أن يتلاشى السحر عني، بأغنية "أدهم الشرقاوي" لعبد الحليم، وما أحلى الموال؛

"يا ادهم وصابك رصاص الغدر جوه القلب"

"وقعت يا ادهم"

"ولو كان الرصاص له قلب... ما كانش صابك"

"وكان ارتد على الاعداء"

"يا خسارة يا ادهم"

ظل يتردد على بائع الشرائط الممنوعة حتى كَوَّن المجموعة المهربة كلها، وكانت فاكهة سمرنا معا.

واليوم وبعد مرور سنوات طويلة من حياتي، وتقاعدي وظيفيا لتجاوز سن الستين، حين أظن أنني وحدي أتغنى بهم، فيسمعني أبنائي ويضحكون كثيرا، يتعجبون من هذا المشهد الغير مألوف لأبيهم ذو الصوت الخشن، واليوم قد أصبحت تلك الأغاني متاحة للجميع مجانا على النت، ولكن الوفرة تأخذ من حظ المتعة، ولهذا يندر من يلتفت إليها.

كان يحب الحيوانات الأليفة، عنده قطة سيامي عجوز، يُزينها ويضع حول رقبتها عقد ذهبي خفيف، وحين ماتت ناله حزن عميق، وقد

كنت ألومه قائلا: "هذه عاطفة حولاء، فما تنفقه من مال على رفاهيتها، الأولى به فقير أو مسكين"، ولكنه كان يرد "أنه يتعسر على مثلي، من ذوي المشاعر الغليظة أن يترقى ليفهم مشاعره الرقيقة"، فأصمت.

في يوم قال لي : "عندما ننظر إلى الحيوانات والطيور نجد منظرا غريزيا متكررا فيها جميعا، الملاطفة والتدليل وخاصة في الحَمام والقِطط. ويكثر في الأفلام الأجنبية مَشاهد تُدهشني وتعجبني، فالزوج يجلس وبجانبه زوجته ويده على كتفها تشتغل طوال الوقت، ضم، تربيت، لمس لطيف، وتتناثر القُبلات السريعة والعميقة على مدار اليوم بلا توقف، وبالمثل يمنح الأب والأم أولادهم وبناتهم قبلات وأحضان ولمسات متتالية، هناك معلومة جوهرية نسيناها وأنكرناها نحن العرب، أنَّ الإنسان يحن ويأنس وتنتعش روحه باللمس، الإنسان يجب ألَّا يُترك في وحشة بلا تلامس، قليلا ما نحضن البنت ونمسح رأسها وظهرها، ونادرا ما نفعل مع الولد، ولا يقوم الزوج وزوجته بتبادل اللمس إلا بعد التأكد من غلق الباب، التلامس والأحضان المعبرة عن الود البريء يجب أن تعلن في الأسرة، ويجب أن نفرق بينها وبين التي وراءها الجنس وتُفضي إليه، هذا الاحتراس أوصلنا لمشاعر برِّية".

"كثير منا لو لمسته يد عشوائية يرتعش وينتفض ويَنْفر، لو رصد أحدنا كَمّ التلامس الذي يطوله لكانت النتيجة مفاجأة، ولظن أنَّ هناك حَكَم يقف بالصفارة ليعلن تسجيل مخالفة على من يلمس

الآخر، تراجَع كثيرا حُضن الصديق والأب والقريب والزوج، وانكمش الناس للوراء، وتتراكم مشاعر الاغتراب والوحشة والجفاء والجفاف على جلودنا وروحنا".

ثم التفت إليَّ قائلا : "ولهذا أيها العبيط كثرت ظاهرة اتخاذ القطط والكلاب، تُربت عليها وتدللها وتحضنها وتفضي إليها بأسرارك، لأن قنوات تفريغ العاطفة أصبحت جافة ومسدودة، فكان البديل هذا الحيوان الأخرس".

الغريب أن هذا الحديث صدر منه حين كنَّا شبابا لم نتزوج بعد، فكنت أتعجب من أين تأتيه هذه الحكمة المبكرة.

ومن طباعه الغريبة أنه يستحيل أن يجلس في الكافتريا بالكلية ويتناول طعام، وحين أسأله عن ذلك يقول: "هذا يخدش الرومانسية"، وكان لا يستسيغ رؤية أي فتاة تلتهم ساندويتش في الكلية بين المحاضرات، وحين أجادله: "أنَّ هذا تَكلف وتبرؤ من بشريتنا"، يزهد في مجادلتي لأنه يدرك عدم جدواها.

من يعلم هذه الصفات فيه لا يتخيل أبدا أن يكون عنيدا، ولكنه كان عنيدا في شيء وحيد، كان يرفض أن يُهزم حتى لو كانت مباراة شطرنج، وكان من عادتي حين أفقد قطعا كثيرة أو قطعة هامة أن انهزم مستسلما، فأنهي الدور سريعا، فالمقاومة مؤلمة وهذه مجرد لعبة

فلا داعي أن أتعذب بمشاعر الهزيمة طويلا، وكان صديقي عكس ذلك تماما، حين يفقد كل قطع الشطرنج ولا يتبقى سوى الملك وبضعة عساكر كان يستمر في اللعب ببطء ويطيل، يأمل أن يتسرب الملل إلى نفسي فأغفل، وحين أهزمه يغضب وربما لا يستطيع النوم، وكنت أتعجب، كيف بمن لديه تلك الرومانسية أن يملك هذا العناد في مجرد لعب.

في صبانا كنا مغرمين بتعلم الإنجليزية، ونذهب إلى الأماكن السياحية لنجري محادثة مع الأجانب، وفي يوم كنا بالمتحف المصري، فأشار إلى سائح يُمسك بكتاب ويتأمل مومياء فرعونية، فأشار إليَّ أن أذهب إليه وأتحدث معه بالإنجليزية، فلم أنتبه للمقلب، وذهبت إليه وتطفلت عليه، فأعطاني ظهره وهو يكلمني، وحين سألته عن رأيه في معاملة المصريين له، قال: "المعاملة لطيفة ولم يضايقني سواك"، فأحسست بحرج شديد وشكرته وانصرفت، وعدت لصديقي فوجدته يكاد يقع على ظهره من الضحك.

حين تجاوزنا الخمسين، كان يتشدق بأنَّ صَلعته وتجاعيدَ وجهه غلاف لقلب شاب، فمازال يعشق الأغاني والموسيقى التي كنا نُدمنها في شبابنا، وكنت لا أسمع هذه الأغاني إلا عنده، وأتعجب منه وهو يهتز طربا ويذوب وَجْدا وهو سكران، بينما لا يكاد يصلني من الطَرب إلا تيار ضعيف من المتعة القديمة، فأعجز أنْ أرقَى لمثل استجابته.

وفي يوم عاجلته بالسؤال متفلسفا:

- "لو اعتبرنا الحب طاقة شريفة، فمن أين تنبع؟"
- "تنبع من الشعاع الذي ينبعث من الجميلات والحِسان فيخترق القلب ويملكه".
- "وهل كل الجميلات يُرسلن هذا الشعاع؟"
- "لا بالطبع، بل الكيمياء والأشـــواق الخاصـــة والميول للجمال بكافة أنواعه".
- "هل كلنا يصلح للحب؟"
- " هل كلنا يستحق الحب؟"
- "هل كلنا يعرف كيف يحب؟"
- "هل الحب مهارة أو انفعال؟"

فنظر إلي شذرا وشتمني ثم فتح التليفزيون ليشاهد نشرة الأخبار.

في السنوات الأخيرة انتابته حالة صوفية عميقة، كان يُصلي بالبيت نظرا لظروفه الصحية، يصلي والمصحف أمامه، حفظ بهذه الطريقة كثيرا من القرآن، أصبحت الصلاة بالنسبة له معايشة وروح وأنس، وحين تعتل صحته أو تضعف همَّته يُنهي الصلاة سريعا، فقلت له يوما: "لماذا لا تُعيد الصلوات التي تضطر للإسراع فيها"

وكنَّا قرأنا أنَّ بعض الصالحين كانوا يُعِيدون الصلاة المتعجلة بلا خشوع إلى أوقات تالية، فقال لي مقولة أدركت كم نال من فقه القرآن والمعرفة: "أنا لا أنظر ورائي.. ولا أعيد بضاعتي التي ييسرها الله لي.. بل أحسِن في الآتي ولا التفت إلى ما يفرط مني.. بل أفَضِّل أن أقابل الله ببضاعة مختلطة وناقصة، لأن فيها ممارسة للعبودية والبشرية.. والكمال لله".

ثم ضحك وقال لي بلهجة أقرب للتوبيخ: "وهل تعتقد أنَّ العُمْلة التي نعامل الله بها هي تلك الركعات؟، هذه الركعات غلاف لجواهر، والجواهر لا تُقَدَّم عارية بل مَحْمولة في أغلفة ورسوم"، أدهشني كلامه وأحسست بطفولتي أمامه.

وفي يوم مرض صديقي فجأة بدون مقدمات، لم يعاني طويلا، غادرني وحيدا مُخْلفا فراغا لم أستطع الإفلات من وحشته، ولا يبقى حيا سوى الذكريات، رحم الله صديقي.

الجردل هو الحل

في المزارع الكبيرة لتربية الطيور والحيوانات، لا بد من طاقم لمراقبة كل شيء، وملاحظة الظواهر الإيجابية والسلبية ومواجهتهما بما يلزم، فيبتكرون وسائل لاستثمار الإيجابي ومقاومة السلبي.

عندما يصل إليهم تقرير عن شيوع ظاهرة تبادل النَقْر بين الدجاج والشَرَه لأكل الدم، أو انتشار اعتداء الأم على أولادها في حظائر الحيوانات، لا بد من الدراسة والبحث عن حل، ربما هناك نقص في مادة غذائية جعلت الطيور شَرِهة للدماء، ربما الحظيرة مكتظة ويجب تقليل العدد أو تكبير المساحة، ربما هناك فئران وثعابين وحشرات متطفلة تتسلل إلى المزرعة فتزعجهم وتخوّفهم، الاحتمالات كثيرة، ولكن مِنَ المستحيل أن يظل المراقبون متجاهلين لما يحدث وتاركين الأمور تستفحل.

عدد المراقبين قليل جدا ولكن وظيفتهم هي الأهم، هم عيون وعقل وضمير وطبيب المزرعة.

كيف يكون الحال، حين يُهمل المراقبون المزرعة وينشغلوا بمراقبة الأحـوال خـارج المزرعة، وينحصر همّهم في متابعة: "حرب أفغانستان.. أردوغان.. الإخوان.. الشيعة.. السياسة.. الأمريكان..

التاريخ.. الفقه.. كورونا.. الأهلي والزمالك.. الخ"، وينسون الدجاج والأرانب والمواشي وأكل عيشهم، يُصبح المراقبون خبراء استراتيجيون في كل شيء عدا مشاكل المزرعة!.

* * *

تغرق بيوت مدينتي في البِرَك والمستنقعات من طفح مياه الصرف الصحي، تتسرب المياه الفاسدة والروائح الكريهة والعَدْوى إلى البيوت والأنوف، يخرج الجميع إلى أعمالهم ومدارسهم مُشَمّري ثيابهم وحَذِرين، يقفزون على أحجار متراصة عالية عن الأرض حتى لا تطولهم المياه النجسة، لو نظرنا إلى معاناتهم، لاتفقنا بداهة على أنَّ مشكلتهم الأساسية هي طفح مياه الصرف، فلا بد أن تنحرف تلك المياه بعيدا عنهم ولا تختلط بحياتهم.

حين نشاهد النُخبة والمثقفين وعلماء الدين في تلك البلدة، يتحدثون عن كل شيء بالتفصيل عدا المشكلة الأساسية، ماذا نسمي هذه الحالة؟

فريق يتحدثون عن: "أحكام طهارة الثوب والبدن، الثوب الشرعي لتجنب ظهور ساق البنت المشمرة حين تتجنب القذارة، ضرورة إغلاق النوافذ حتى لا تدخل العدوى البيت، الأدوية التي تعالج الأمراض التي تسببها الحشرات والميكروبات، وينسبون بؤس

الحال إلى الكاسيات العاريات ورِقَّة الدين والمعاصي، فأخلاقنا تغيرت ونفوسنا تلوثت ونستحق ما نحن فيه".

بينما خصومهم من التيارات الأخرى ممن يلعبون معهم لعبة الديوك، يعيبون عليهم سذاجة تدينهم المزيف وتعصبهم، ويتنبَّأون بأنهم لو نجحوا في تطهير البِرَك سوف يتحكموا في البلدة، ويذيقوا الجميع الويلات، لهذا الأفضل لنا أن نظل في المجاري حتى لا يطولنا الأسوأ لو تحكم فينا المتدينون الأوغاد.

ألا يمثل هذا المشهد ذروة الحماقة والكوميديا السوداء.

من يقبع في بيئة تنشر البراغيت والقمل سوف يكون في رأسه وجسده حشرات مهما كان مثقفا أو متعلما أو مُتَحذلقا، وللأسف كلنا قمل وبراغيت فكرية ونفسية.

* * *

في أغلب حوادث الحريق في المباني، يتدافع الناس للهروب فرادى، تكون الخسائر في الأرواح والجروح هائلة بسبب التدافع وليس الحريق، ونحن في بلادنا نتعامل وكأنَّ هناك حريق، وكل منَّا مهتم بنفسه ويريد النجاة، بل بعضنا يريد الربح من نيران الحرائق، لا أحد يفكر في تعاون وتنظيم لنخرج جميعا من المبنى بسلام.

عندما تتهاون السلطة في منع انتشار المخدرات بين الناس، ثم تنتشر حوادث السيارات وتصادم القطارات والاغتصاب والقتل وتسوء

الأخلاق وتكثر المشاحنات، من الغباء أن نتعامل مع كل حادث كحالة فردية خاصة، لا بد أن ننسب كل الأحداث إلى السبب الأصلي وهو المخدرات، ونواجه انتشارها، فيختفي أكثر هذه الحوادث والأحداث.

نحن في مجتمعنا وحياتنا ننسب الحوادث لعلل هامشية مضللة، ننسى جذر هذه العلل، ونخشى فتح ملفاتها، خوفا ممن يقف وراءها من الفاسدين أو أنَّ فينا من يستفيد من هذا الفساد.

* * *

استسلم قبطان سفينة إنجليزية إلى الأعداء ووقع في الأسر، ثم أفرج عنه بعد ذلك، فأقامت له الدولة محاكمة عسكرية لمحاسبته على استسلامه، سأله القاضي، فقال القبطان: "عندي عشرة أسباب للاستسلام".

الأول: "لا يوجد معي ذخيرة".

وعندما همَّ بذكر السبب الثاني؛ قاطعه القاضي وقال له:

"كفى، فبقية الأسباب لا تهم"

* * *

لو نظرنا إلى النشاط الحواري في كل أنحاء مصر لاكتشفنا العجب، لسان الأفكار والنفسيات والعواطف هو الذي يتكلم، الكل حريص

على تغيير أفكار الكل، ولكن لم يصدر من أحد اقتراح يشير إلى عمل مشترك بسيط على الأرض، فالأمر أشبه بحرائق مندلعة والكل يتجادل عن الحريق ولا يخطر ببال أحدهم أن يمد يده ويتناول إناء ويصب الماء على النار، أو يحث الآخرين على إطفاء النيران، وكل النشاط ثرثرة حول النار، ولا يخطر ببال أحد أنا ينادي:

"الجردل هو الحل"

* * *

في مصر: كثافة في المقاهي، كلها تمارس نشاط واحد، مشروبات ومشاهدة مباريات كرة قدم، البطالة تغذي هذه الظاهرة السلبية، ألم يخطر ببال النخبة أو الحكماء الذين يديرون شؤون الدولة، أنَّهم بقليل من التفكير الواعي والمخلص، من الممكن تحويلها إلى ظاهرة إيجابية!.

- "ما سبب السلبية في هذه المقاهي؟"
- "النشـــاط الغالب فيها واحـــد وغير منتج وعبـــارة عن ثرثرة وترفيه".
- "هل تغيير النشاط يعكس السلبية إلى إيجابية؟"
- "ممكن. هذا بحسب أنواع الأنشطة".
- "لـــو كان في المدينة الواحدة ثلاثون قهـــوة، وهذا عدد واقعي، ماذا لو تحولت واحدة لتكون قهـــوة المثقفين، أو قهوة القراءة،

أو قهـــوة هواة عـــزف الآلات الموســـيقية، أو قهوة الإصلاح، ويقوم فيهـــا الناس بنقد المجتمع واقتراح إصلاحات اجتماعية، أو قهوة المطلقات، أو قهوة الأرامل من النســـاء أو الرجال، أو قهوة أصحاب المعاشات الراغبين في منح المجتمع خدمة مجانية من خبرتهم وتخصصهم القديم ومن وقتهم الذي يريدون منحه لعمل الخير.. إلخ".

- "بهذه الفكرة تتحول المقاهي تدريجيا لسد ثغرات مجتمعية ودفق خدمات وتيارات إصـــلاح في المجتمع، ولا بأس من أن يكون وراء هذه الأنشطة أهل الخير".
- "وبنفس الطريقة في التفكير نســـتطيع مناقشـــة ظواهر أخرى بتحويلها من الســـلبية إلى الإيجابية ومن الضرر إلى النفع، مثل ظاهرة الدروس الخصوصية، فوضى الغلاء، انتشـــار مفاســـد أخلاقية وسلوكية.. إلخ".

* * *

ما هو المناخ السائد في بلادنا؟، هل هو: علمي؟ فني؟ أدبي؟ ثقافي؟ اقتصادي؟ سياسي؟ رياضي؟ صناعي؟.. الخ

الإجابة عندي.. لا، بل مناخ تعليمي.. شهاداتي، فالنشاط الغالب والتيار الجارف والهم الأوحـد في عقل كل الشعب، التعليم

والدروس الخصوصية، أولادنا كلهم في الشوارع على أبواب بيوت المدرسين، تتلخص حياة أولادنا في درس خصوصي وموبايل، هذه الرحلة تستغرقهم حتى سن الثالثة والعشرين.

يسيطر على أولادنا حلم واحد، طب أو هندسة، وسعيد الحظ من ينحني لكلية حربية أو بوليسية، هل يوجد في بلادنا حلم ولا قيمة غير ذلك!، وهل هذا الحلم يثمر علماء وخبراء ومفكرين ومصلحين!.

حين تجتاح البرودة أو الحرارة الناس، لا نحتاج تذكيرهم بارتداء ملابس وابتداع أدوات وأنشطة تناسب هذا المناخ، حين يظلل الناس مناخ "ثقافي وفني ورياضي وعلمي وديني وحربي واقتصادي.. الخ"، لا بد أن يسري في الشعوب كتيار.

حين نتساءل عن السبب أنَّ مشاهير كرة القدم من البرازيل والأرجنتين؟، نجد الإجابة الواضحة هي أنَّ الشعب كله يلعب كرة القدم ويعشقها ويمارسها ويجعلها فرحته وهوايته وربما مصدر رزقه، المناخ الكروي سائد فيهم، فحيث يوجد الأنهار توجد أسماك المياه العذبة، وحيث يوجد البحار والمحيطات توجد أسماك المياه المالحة، وحيث يوجد نشاط كرة القدم يوجد "بِليه وماردونا وميسي".

في عصر النهضة الأوربي كان المناخ "علمي وفكري وفلسفي وديني وحربي واقتصادي وفني" في كل أتجاه، من يظن أن لولا "نيوتن أو

أينشتاين أو داروين" لما كان كشفهم وفضلهم فهو واهم، كان هناك آلاف العلماء الذين يشتغلون في هذه الاكتشافات في أماكن عديدة وتراكمت معارفهم، ولكن كان لا بد في النهاية من فرد واحد ينسب إليه الفضل.

ولهذا لا بد من تأمل المناخ الذي يُظِل ويتشبع به الفرد المصري والعربي.. ثم نتأمل في الثمار، ولا نعجب من طبيعتها؛ فالثمرة من البذرة والتربة والغذاء والرعاية.. فالذي يزرع الفل والورد والفاكهة لا يمكن أن يجني صبَّار أو علقم.

فما الذي زرعه ويزرعه الفرد المصري والعربي؟ وما الذي ينتظره كثمرة؟

خلاصة القول، يجب تحويل مناخ المقاهي الترفيهية إلى ما يشبه النوادي التي تجمع أصحاب الهم أو الهواية الواحدة، يجب تحويل المناخ التعليمي إلى علمي.. والتديني إلى ديني قيمي.. والظاهري إلى جوهري.

المِتْبَلم

يشتهر عندنا المَثَل المصري، "تظل تعَلم في المِتْبَلم طول الليل ويصبح ناسي"، ويُقْصد به الشخص البليد والضعيف التركيز الذي لا يَتعلم ولا يَفهم ولا يَعتبر.

كثيرا ما تقفز إلى خاطري تلك الصورة؛ قطار ممتلئ بالركاب، يقوم السائق والكمساري والمفتش بملابسهم الرسمية، بسلب ذهب وأموال الركاب وتجريدهم من ملابسهم عدا الملابس الداخلية، ثم يقفز اللصوص من القطار، ومازال القطار يجري على القضبان، والركاب محتفظون بهدوئهم وتَوقّعهم الوصول لمحطة السلامة ويقولون متفائلين: "يا رب".

* * *

تُعتبر الحالة الصينية الهندية أغرب من الخيال، حالة مضحكة للحَمْقى، وفي نفس الوقت ذات عِبرة للعُقلاء، الصراع على الحدود بينهما خطير وحسَّاس، في عام 1962 نشبت حرب بين الصين والهند، انتصرت الصين نصرا ساحقا، واحتلت الأرض المتنازع عليها، بعدها بأسابيع قليلة ودون ضغوط، قامت الصين بتوقيع معاهدة مع الهند، تنسحب بموجبها من الأرض التي حاربت

لاستردادها، لم يستعينا بحكام دوليين ولا بالأمم المتحدة، وعاد الوضع إلى ما هو عليه قبل الحرب، واكتفت الصين بأنها أعطت الهند درسا، وفضلت السلام على حسم النزاع بالحرب.

يدرك الصينيون والهنود أنَّ العنجهية لا تفيد، لقد أخذا درسا من حماقة العالم وخاصة الغربي والعربي، وحتى اليوم لا تتوقف الصِدامات على الحدود بين "الصين والهند، وأيضا الهند وباكستان"، مناوشات كثيرة ومضحكة، ممنوع استخدام السلاح، قتال شوارع بالبوكس والشَلُّوت والسِباب، وأقصى سلاح هو "يد المقشة"، العصي هي السلاح المتهور بينهما، ولهذا لا تحدث إلا إصابات نادرة وطفيفة، كأنها خِناقة في حارة بين دولتين نوويتين.

لم يتورطا في حرب مثل التي جرت بين إيران والعراق واستمرت ثماني سنوات، أو التي جرت بين طوائف اللبنانيين واستمرت خمسة عشر عام، فالحروب عندنا تستمر سنوات طويلة ويُقْتل بسببها ملايين البشر، ولهذا أتساءل، هل هؤلاء الصينيون عقلاء أم نحن المجانين.

* * *

بعد استقلال مصر عن بريطانيا بسنتين، وعقب قرار تأميم قناة السويس، كان العدوان الثلاثي على مصر عام 1956م، قامت

إسرائيل وفرنسا وإنجلترا بتدمير هائل للأفراد والمعدات والمنشآت المصرية، وتدخلت أمريكا فأوقفت الحرب، وأعقب ذلك دفع مصر تعويضات كاملة للدول التي تضرَّرَت من تأميم قناة السويس، ورغم الهزيمة الواضحة ظل المصريون يحتفلون بهذا اليوم باسم "عيد النصر"، وبسبب عدم مراجعة ضرر حكم الفرد وتسمية الهزيمة بالنصر، أنْ توالت هزائم أعنف وأفدح، وهذا مثال صارخ للفرق بين عقليتنا وعقلية الصين الحكيمة.

* * *

أتخيل مشهدا لرجل يحرث في البحر، فيُنْكر الناس عليه، ويقولوا له: "يا أحمق، ماء البحر مالح، عليك أن تحرث في النهر حيث الماء عذب"، فيطيعهم، ثم يقول له آخر: "يا أحمق! أنت تحرث في النهر ولا تلقي البذر، فكيف تنتظر نباتا وثمرة!".

لا شك أنَّ هذا الخيال عَبَثي ولا يُعقل، ولكنه مِثل واقعنا العَبثي، فنحن حين نفكر نتوصل لنتائج سطحية بعيدة عن الأعماق، ولذلك علينا أن نتساءل: "أين ثمرة أي جهد نفعله فرادى أو جماعات منذ عشرات السنين؟".

فلاح يحرث في أرض طينية وبجانبه نهر وفوقه سماء وشمس؛ ماذا ينتظر غير نبات يرتفع من الأرض وثمار تتدلى، عندما يقوم كل

الفلاحين بزراعة أرضهم ولا نجد ثمرة واحدة في القرية، ماذا نسمي هذا؟ ما الفرق بينه وبين الحرث في الماء أو الهواء؟ الثمرة هي البرهان وهي المحك وإلا فكُله حرث في الماء والهواء، الذي يحدث بمصر، أنَّه مع كل عملية بِناء تتوازى عملية هَدم، فتصبح كل الجهود عَشوائية وصِفرية وبعيدة عن الحكمة.

* * *

اندلعت حروب بين الهند وباكستان، هَزَمت الهند باكستان، ثم امتلكت باكستان القنبلة الذرية، وتعادل ميزان الرَدْع بين الدولتين، وأعقب ذلك تغيير في تفكير الهند، فقد رأت أنَّ الأفضل أن تكون باكستان سوقا للبضائع الهندية فيحصل الربح المتبادل بدلا من الضَرر المتبادل، فتغلبت الحكمة على التعصب.

لو نظرنا إلى أفغانستان اليوم لوجدنا مثالا صارخا على الحكمة الصينية، لقد ظلت الصين تراقب احتلال الإتحاد السوفيتي لأفغانستان وما ترتب عليه من قتال شرس وخسائر فادحة، انتهت بتفكيك الإتحاد السوفيتي، ثم تلى ذلك احتلال أمريكا لأفغانستان لسنوات طويلة فتكبدت خسائر فادحة، ثم انسحبت باتفاق مع طالبان، وبمجرد تولي حكومة طالبان، كانت أمريكا تتوقع أن تكون أفغانستان مشكلة كبرى وتهديدا للصين، سواء عن طريق تهريب المخدرات أو تصدير الجماعات الجهادية إلى الصين، فتتورط

الصين في أفغانستان مثلما تورطت أمريكا وروسيا، ولكن قامت الصين برعاية أفغانستان اقتصاديا وماليا وإداريا ثم مدتهم بخبراء في مجالات كثيرة تساهم في دعم استقرار الحكم، فكانت الصين الدولة الوحيدة التي استعملت وسيلة مختلفة مع أفغانستان، وسيلة الفائدة المزدوجة والسلام المتبادل، ومازال كلاهما يجنيان ثمار هذه العلاقة الطيبة للطرفين.

* * *

في الفيلم المصري الشهير "عسل أسود"، مشهد يعاتب فيه العجوز "عم هلال" الشاب "مصري"، الساخط بسبب عَجزه عن العودة لأمريكا، قائلا: "أنت في الصورة المصرية لم تنتبه للعظمة التي تتمثل في الأم المصرية التي هي صابرة على أولادها حتى أنها مازالت تتكفل بالإنفاق على ابنها العاطل، ولم تنتبه لصبر الزوجين اللذان لا يجدان فرصة للخلوة ببعضهما بسبب الظروف المادية الصعبة"، وظل يعدد له الجانب العاطفي في شقاء الإنسان المصري، ويعدد له النُبْل العاجز في تحمل الإهانة والظلم والقهر، فسَمَّى الأشياء بغير مُسَمَّياتها الصحيحة.

* * *

"الحرث في الماء" يعني الاستمرار في الخطأ دون مراجعة أو تراجع، وتسمية الهزيمة نصر والفشل نجاح، والأمثلة كثيرة، ويكفي مثال

التعليم في مصر التي ابْتُلِيَ شبابُها بالبطالة، وأغلبهم حاصلي على مؤهلات عليا، ومع ذلك مازالت الدولة تُعطى التصاريح بكرم حاتمي لإنشاء مزيد من الكليات والجامعات الخاصة، وهذا يعني زيادة أعداد الحاصلين على شهادات جامعية، وهذه الزيادة تستلزم توفير المزيد من فرص العمل، ولهذا لا وصف لما يحدث سوى "الحرث في الماء".

* * *

يجب على العاقل أن يتوقف حين تحدث أزمة، لا أنْ يتعايش معها حتى تُغرقه وتُهلكه، يتخذ مجتمعنا موقفا غريبا، فبدلا من الاعتراف بالفشل أو الخطأ، ثم البحث عن وسائل أخرى مثمرة، نسمي الفشل والعجز والهزيمة أسماء نبيلة ليدوم الحال ولا نتحمل المسؤولية عن البلاء، نسميها نصرا وصبرا وفلاحا، ونكتب "ملح" على علبة "السكر"، نَكْذِب ثم نُصَدِّق أنفسنا، فنضع السكر حيث يجب أن يوضع الملح وتَفْسد كل طَبْخة.

يحتاج مجتمعنا نخبة تفكر خارج الصندوق، ولها كلمة مسموعة في الناس، تطارد الحكمة وتكشف زيف أفكارنا وضلال مشاعرنا، نخبة تفتح الأعين على المرض وتشير بأصابعها إلى الدواء، وتقوم بدلا من جلد الذات بنفث روح الأمل والرشاد في المجتمع، فالنخبة هي عقل وروح الشعوب، وبدونها نحرث في الماء.

الحمار والحبل

هناك قصة شهيرة لمصري يشتري بضاعة من محل أوربي، قالت له البائعة: "هذه بخمسة دولارات وهذه بسبعة"، فلما وجدهما نفس الشيء سألها، فقالت: "حدثت زيادة في السعر"، فقال لها: "لِمَ لا تبيعي الإثنان بالسعر الجديد" فقالت: "هل أنت لص؟"

في هذه القصة تحدَّث كل واحد بثقافته، تكلم المصري بما في بيئته من تناقض وارتباك قيمي، فجميعنا يستمع للموعظة في المسجد ثم يراها تُخترق وتُنتهك في الواقع، وفي المدرسة، يُنصح بالصدق والعدل والرحمة، بينما في الواقع يرى الطلاب المدرسة تلتزم وتنتظم وتتزين بالألوان الزاهية حين يأتي مسؤول لزيارتها، وبعد انصرافه تسترد ثانية ثَوب الفوضى والابتذال، ويمارَس نفس النفاق والتجمل في أغلب المؤسسات، وبهذا يتدرب الناس على سماع الموعظة وتطبيق نقيضها في الحياة، ويصبح للشر هيبة وجاذبية واحترام، والضمير مطاطي ومهزوم، ولا يشعر المصري بالتناقض، فلا يُنكر ولا يرى داعي للاعتراض.

هذه هي أكبر معضلة مصرية، التعايش مع التناقض الذي يزين السطح ويترك الجوهر فاسدا، تعليم بلا علم، انتخابات بلا نزاهة، ديكتاتورية بإجراءات ديمقراطية، سرقة في إطار درامي وتغطية

إعلامية تجعل الناس يتعاطفون مع اللص والقاتل ولا ينتبهوا للسرقة والقتيل.

والمدهش أن هذا الحال قديم منذ قرن ونصف، فلو بُعث أحد المصريين الذين ماتوا عام 1900، سينظر إلى المجتمع المصري اليوم ويكتشف أنه لم يتغير ومازال يعيش في التناقض ولا يشتكي.

* * *

يُحكى أن، ذهب فلّاح لجاره يطلب منه حبلاً لكي يربط حماره أمام البيت ، أجابه الجار: "أنه لا يملك حبلاً" ولكن أعطاه نصيحة وقال له :

"يمكنك أن تقوم بنفس الحركات حول عنق الحمار وتتظاهر بأنك تربطه ولن يبرح مكانه"

عمل الفلّاح بنصيحة الجار، وفي صباح الغد وجد الفلاح حماره في مكانه تماماً، رَبَت الفلاح على حماره وأراد الذهاب به للحقل، ولكن الحمار رفض التزحزح من مكانه، حاول الرجل بكل قوته أن يحرك الحمار ولكن دون جدوى، حتى أصاب الفلّاح اليأس من تحرك الحمار، فعاد الفلاح للجار يطلب النصيحه، فسأله: "هل تظاهرت للحمار بأنك تحل رباطه؟"

فرد عليه الفلاح بـ استغراب : "ليس هناك رباط".

أجابه جاره : "هذا بالنسبة إليك أما بالنسبة إلى الحمار فالحبل موجود".

عاد الرجل وتظاهر بأنه يفك الحبل، فتحرك الحمار مع الفلاح دون أدنى مقاومة .

لا نستطيع أن نسخر من الحمار لأنه حيوان، ولكن المدهش أنّ الناس أيضاً قد يكونوا أسرى حبال من عادات أو قناعات وهمية تقيدهم، وما عليهم إلا أنْ يدركوا الحبل الخفي الذي يلتف حول عقولهم فيمنعهم من إدراك اختراق القيم وتناقض الواقع والمثال.

* * *

كيف يختار المصريون من يترشح في الانتخابات ليمثلهم؟

كنت في زيارة لأقربائي، وكانت الدعاية للإنتخابات البرلمانية ساخنة، وإذا بمرشح حزبي شهير يزورنا، هذه هي الدورة الرابعة له في المجلس، وقد ورث أباه الذي كان عضوا بالمجلس سنوات طويلة متتالية، وبدأ العضو في شرح أسباب جدارته بتمثيلنا بالبرلمان، فحكي تلك القصة:

"اتصل بي فرد من عائلة فلان، وطلب مني النجدة بسبب حادث خطير، فقد انطلقت بالخطأ رصاصة من أخيه فأصابت ابن عمه فقتل في الحال، أسرعت إليهم واستمعت للقصة ووجدتهم يواجهون مصيبتين، موت ابن عمهم، وخطر توجيه تهمة القتل لأخيهم، ولا يضمن أحد أن تُصَدِّق النيابة القصة، ونظرا لأنه يعرفهم جيدا

ويثق في صدقهم، هكذا قال!، قام بعمل إتصالاته بمن يعرفهم من المسؤولين، واستطاع أنْ يتوسط لتُكيف القضية وكأن القتيل أطلق على نفسه النار بالخطأ، وطويت صفحة هذه الحادثة سريعا بسبب علاقاته ووجاهته التي هي ثمرة عضوية مجلس الشعب".

استمعت إلى القصة وأنا مذهول من تفاعل الحاضرين معه وتغاضيهم عن توصيف هذه الجريمة، لقد قال لهم صراحة: "انتخبوني لأنَّ عندي الأدوات التي تفلتون بها من الشفافية والعدالة، أتوسط لأشقيائكم حين يُجرمون وأتوسط لتوظيف أبنائكم أو إعفائهم من خدمة إلزامية أو القبول في الالتحاق بمدرسة أو كلية"، يعدهم بأن يكون واسطة تتجاوز القيم والقوانين.

ولا تحاول إقناع الناس بخطأ هذا المنطق لأنك ستلاقي مقاومة عنيدة، فمقاييس المصريين عاطفية وبعيدة تماما عن المنطق.

كيف ينظر المصري لمراسم الجنائز والمآتم؟

للمآتم عندنا طقوس ووجاهة، وخاصة في القرى، وهناك كثير من الأسر التي يُعهد فيها إلى فرد من العائلة بتسجيل أسماء العائلات التي أرسلت من يؤدي واجب العزاء، ويُحتفظ بهذا السجل لضبط عملية رد الواجب في حينه، فامتلاء الصوان بالمعزّين دليل على كرامة هذه العائلة، ولهذا فوظيفة عضو مجلس الشعب الكبرى هي حضور

الجنائز والعزاء بدور الضيافة، وعندما يأتي بصحبة البِطانة التي معه للعزاء، يقوم أهل المتوفي بحركات متوترة ومتكلفة للترحيب به والأخذ بيده إلى أنْ يجلس في مكان مميز للوجهاء، ويكفي أهل المتوفي هذا الحضور كي يتعهدوا بالوفاء له وتأييده في كل مرة يرشح نفسه للانتخابات.

وفي البرلمان لا يوجد أسرار، تَنْشر الصحف والإعلام المرئي أن العضو فلان وافق على قرار بزيادة الضرائب التي ترهق الناس، أو قدم طلبا بتمديد قانون الطوارئ الذي يقيد كرامة وحرية المواطن، ولكن هذه نثريات عند الناس، لا يدركون خَطَرها، المهم أن يكون بيت العضو مفتوحا للناس ليعدهم بمنحهم وساطته، ومعلوم أنه يستحيل أنْ يمنح وساطته لكل الناس، لكنه يعتمد على ضعف ذاكرة الناس وتوهمهم بحظوتهم عنده.

لم يتغير المصري منذ قرن في نظرته لمرشح مجلس الشعب ولا في تقديره لمن يقدم له العزاء حتى لو سرقه وظلمه وحرمه حقوقه، هذا الحبل الوهمي مازال يقيده عن إدراك التناقض وحجم الضرر.

في كتاب "يوميات نائب في الأرياف، لتوفيق الحكيم"، يحكي قصة حدثت منذ قرن: "بعد ثورة 1919، تتأزم الأمور السياسية فى العاصمة، ويطاح بالوزارة، تقرر إجراء إنتخابات جديدة، ويَجمع المأمور العمد والمشايخ ويأمرهم بضرورة نجاح مرشح الحكومة،

ويَقبض على أبناء الخصوم بتهمة التشرد، حتى لا يعرقلوا العملية الانتخابية"، يقول المأمور لوكيل النيابة:

"تصدق بالله؟ أنا مأمور مركز أديره بالشرف، أنا مش مأمور من المآمير اللى انت عارفهم، أنا لا عمرى أتدخل فى انتخابات، ولا عمرى أضغط على حرية الأهالى فى الانتخابات، ولا عمرى قلت انتخبوا هذا وأسقطوا هذا، أبداً، أبداً، أبداً، أنا مبدئى أترك الناس أحرار تنتخب كما تشاء... ، لغاية ما تتم عملية الانتخابات، وبعدين أقوم بكل بساطة شايل صندوق الأصوات وأرميه فى الترعة، وأروح واضع مطرحه الصندوق اللى إحنا موضبينه على مهلنا"

ولو رجعنا لهذا الذي بعث من قبره لتعجب من أننا لا نزال إلى اليوم محافظين على العهد في الطريق والطريقة التي حكاها المأمور مفاخرا.

ولا ننسى مسرحية سعد الدين وهبة، "سكة السلامة"، وشخصية العمدة الذي سافر للأسكندرية ليلتقي بواسطة تعطي ابنه استثناء من أجل نصف درجة "نِمرة" ليدخل كلية الهندسة.

قرن كامل ونحن نقيس مؤهلات عضو مجلس الشعب بقدرته على التوسط لنا وحضوره جنائزنا ولا يهمنا ما يفعله فينا تحت قبة المجلس، ونتعامل مع الواسطة بتقبل ونتسابق لنلتقطها، أليس مدهشا أن نحافظ على المرض بحذافيره كل هذه المدة ولا يخطر ببالنا

أن نراجع أحكامنا وقيمنا؟ وأليس مدهشا أنَّ الذي يحاول تغيير هذه الفكرة ينال معارضة مجتمعية كبيرة.

* * *

علينا أن نتساءل عن دور خطبة الجمعة في ترتيب القيم، لقد هبت رياح صحوة دينية قوية ودامت سنوات طويلة ولم تنجح في ترتيب القيم، لأنَّهم اهتموا بمظاهر الدين من اللباس والطقوس والآداب، ولم يهتموا بجوهره، وفي المسجد نتعلم الصدق والوفاء والخير بينما في الخارج نمارس عكس هذه القيم،

أوضح مثال على طفولة المصريين عاطفيا وعجزهم عن إدراك القيم، نجاح المسلسل الشهير "لن أعيش في جلباب أبي"، يدور الصراع ساخنا بين تجار الخردة الذين يحتكرون المزادات، فالمزادات ليست حرة، ولكنها تقسيمة بين التجار اللصوص الذين يستعملون الرشوة لشراء المزاد بسعر قليل جدا، ويتداولون إرساء المزاد عليهم بحيث يرسي العطاء بالدور واحدا بعد الآخر، وحين يبدأ الرجل الجديد "عبد الغفور البرعي" بمزاحمتهم، يحدث الصراع ويتعاطف الجمهور مع "عبد الغفور" المسكين الذي ظلمته العصابة التي تتقاسم المزادات، ويفرح الجمهور حين يتمكن "عبد الغفور" من الانضمام إليهم، وتستقر عصابة السرقة والاحتكار في نشاطها، دون أن يخطر ببال المشاهد العاطفي أنه يتعاطف مع السرقة والسارق

ويتسامح شعوريا مع الفساد ويفرح بانضمام لص جديد إلى العصابة التي تسرقه في الواقع.

* * *

هذا الشعب مرتبك لدرجة خطيرة، سلم القيم عنده متداخل وبدون ترتيب، بل ومعكوس، ولهذا يحتاج لمراجعة قيمه وعاداته وأفكاره.

يجب أن ينتبه المصريون لحبل التناقض الملفوف حول وعيهم، فيقوموا بفرز القيم وتقدير المصلحة الفردية والعامة، وتمييز المعروف والمنكر بوضوح، ثم يربطوا القيم الدينية بحيث يصبح المظهر والجوهر سواء، ويزول التناقض في الحياة.

روبسبير والمقصلة

في طفولتي كنت مدمنا اللعب بخيالي في الأفلام التي أشاهدها، أقتحم الأحداث لأقوم بتنبيه البطلة الحسناء إلى ما ينتظرها من ورطة في خِضَم الصراع بالفيلم، وأنقذها ثم أفوز بقلبها وننتهي معا إلى نهاية لذيذة وناعمة.

هذا الخيال ما كان ليحدث إلا بعد رؤية الفيلم كاملا، ولهذا كثيرا ما تساءلت عن "صلاحية أي قصة بغير لحظات الغفلة وضَعف الوعي"، فلو امتلك الإنسان وعيه دائما، لما كان في الدنيا قصة، ولبدأت القصص بالنهايات السعيدة التي نراها في الأفلام، وما حدث "لآدم" عليه السلام، مثال لأول قصة تراخَى فيها الوعي.

ما من إنسان إلا ويقول: "لو عاد بي الزمان لفعلت كذا أو لما فعلت كذا"، ويقولها وهو يتذكر نقطة إنحناء في حياته، لو كان يمتلك حينها وعيا مبكرا لكان له قرار مختلف.

الوعي أشبه بالبصيرة التي تَكتشف زَيْف العُمْلة قبل سريانها بين الناس.

لو تسلل إلى بيتك شخص مُسَلح، ومعك أسرتك، هل تسارع بمقاومته وأنت أعزل مهما كانت النتائج، أم تنتظر لتعرف ما يريد؟،

ربما يريد مالا ثم يرحل في سلام، ربما يريد الاختباء لساعات أو أيام ثم يرحل، ماذا لو كان مطلب هذا المُقتحم أنْ يَمكث في بيتك عدة شهور، وفي نفس الوقت كان يتقن علما أو مهارة ثمينة، ماذا لو عرض عليك أن تمر تلك الشهور في سلام مقابل أن يُعَلِّمَ أبناءَك هذا العلم ويدرِّبَهم عليه، وتنتهي الأشهر ويربح الطرفان.

حينما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر واجهت مقاومة شرسة بِدَعْم من العُثمانيين والإنجليز، وقاد الأزهر هذه المقاومة الشاملة التي قُتل فيها عشرات الآلاف من المصريين، ثم غادرت الحملة مصر ليلتقطها رجل ألباني واسع الحيلة، خدع زعماء الثورة واستولى هو وأولاده على أرض مصر وشعبها قرنا ونصف.

سوف أتخيل السيناريو الآتي:

أنَّ زعيم المصريين "عمر مكرم" قائد الثورة ضد الفرنسيين، كان يمتلك الوعي الذي تتطلبه اللحظة الزمنية، وعَلِمَ أنَّ أوربا بزعامة إنجلترا شنت حملات شرسة على فرنسا لهزيمة الثورة الفرنسية وإعادتها للنظام الملكي، وأنَّ هدف "نابليون" من حملته على مصر، قطع طريق التجارة بين الهند وبريطانيا، حيث تُعد الهند دُرَّة التاج البريطاني، ويدرك "عمر مكرم" مأزق نابليون، الذي تدمر أسطوله على يد الأسطول البريطاني، فأصبح محاصرا في مصر.

يتفاوض "عمر مكرم" مع نابليون، ويوقع معه معاهدة، تتعهد مصر بوقف أعمال المقاومة للفرنسيين، ومدهم بكل الأدوات والتسهيلات التي يحتاجونها، مقابل تعيين مجلس حكم مصري لإدارة البلاد، وأنْ تقوم فرنسا بتحديث مصر في كافة المجالات، "نظام برلماني، مدارس، معامل، فنون، قانون، تكنولوجيا ..إلخ"، تمنح فرنسا مصر كل ما هو ممكن من أدوات الحداثة الأوربية، ويتفق الطرفان على موعد أو ظرف جلاء الفرنسيين.

ويمارس المصريون الحكم البرلماني والتعليم الحديث والإدارة المثمرة لبضع سنوات، وتنتهي الحملة فيما بعد، حسب التطورات السياسية، وتكون مصر قد فازت بتجربة وكوادر نخبوية مدربة للقفز بقوة للأمام، ونالت فرصة مُبَكِّرة لتلحق بالنهضة الأوربية وربما تنافسها.

وبعد هذا الاسترسال في الخيال علينا أن نتساءل؛ "ماهي الاستجابة المتوقعة من زملاء (عمر مكرم) لاقتراحه! ".

للأسف حين تكون الأحداث خطيرة يميل الناس للتطرف في ردود الأفعال، وتكون الحلول الحكيمة صعبة الاستيعاب، فيسارع الثوار بإتهام من يمتلك وعيا وحكمة، ويرفعوا في مواجهته كلمات حماسية تثير المشاعر، أو يطرحوا شعارات دينية تستدعي اجتهادات فقهية عن الولاء والبراء والصراع بين الكفر والإيمان، وينخفض صوت الحكمة، وقد يصل الأمر إلى إتهام "عمر مكرم" بالجبن والخيانة وربما قتلوه.

ولكن لا شك أنَّ هذا الوعي المبكر كان سيوفر على مصر قرنين من الشتات.

* * *

عام (2010/ 2011م) عندما اندلعت أحداث ما يسمي بالربيع العربي في تونس ومصر، صدرت من أفواه الإعلاميين ورجال الدولة العميقة شعارات متطرفة، مثل "حق الشهداء أولا، وحرمان رجال النظام السابق من الحقوق السياسية، محاسبة جميع من أخطأ في العهد السابق"، وكانت تلك الأصوات عالية ومثيرة للجماهير التي عادةً ما تستجيب لأي دعوة تتطرف في مطالبها، وكانت الدعوات العاقلة، التي ترفع راية التسامح والعمل معا لصالح المرحلة القادمة بشفافية، تُقابل بالإتهام بالعمالة والتشكيك، ووقع الجميع في الفخ، وانتشر الخوف بين عدد كبير من موظفي العهد القديم وهم يمثلون الجهاز الإداري بالدولة، وسرعان ما استرد النظام القديم الحكم، وعاد إليه نفس الأشخاص الذين اندلعت الثورة ضدهم، وعاد معهم الذين كانوا يرفعون تلك الدعوات المتطرفة، ومرة أخرى لم يُسْتمع لأصحاب الحكمة والوعي، وانجرف الجميع لدوامات جديدة من الشقاء.

* * *

في فرنسا، بعد انتصار الثورة الفرنسية، بدأت مرحلة تصفية الحسابات بين زعماء الثورة، كما هو معروف عن الثورات، بدأت الثورة تأكل أبناءها، وكان العالم "دانتون" أحد رموزها، فأصبح أحد ضحايا انتصارها، حُكِمَ عليه بالاعدام من قِبَل زعيم الثورة "روبسبير"، سفاح الثورة الفرنسية، عندما وقف أمام المقصلة لتنفيذ الحكم، التفت الى "روبسبير" وقال له: "ستتبعني الى المقصلة يوماً ما يا روبسبير"، وكان "روبسبير" مغمورا بمشاعر السلطة الزمنية فلم يستمع له، ولم تمضِ فترة طويلة حتى تحققت نبوءته، واقتيد "روبسبير" الى المقصلة ليُنَفَّذ فيه حكم الاعدام.

ولا شك أنَّ "روبسبير" قال في نفسه، وهو يسير إلى المقصلة: "لو عاد بي الزمان لما أعدمت (دانتون) ولأوقفت دوامة الإعدامات"

دائما ما ننصت إلى الحكمة بعد فوات الأوان، لأنَّ ضجيج اللحظة وسخونتها يحجب العقل ويرفض الحكمة ويتهمها.

* * *

في التاريخ وفي الحياة وفي العلوم دروسٌ وعِبر، فلماذا لا نقرأ ولا نعتبر كي نمتلك وعيا يوفر علينا المقصلة بكافة أنواعها، فهناك مقصلة تقطع "الاحلام.. العِلاقات .. الإنجازات .. الأمن .. الثقة"، فالوعي المبكر ينقذ الشعوب والأفراد من متاهات تستغرق زمنا طويلا.

يَنتج الوعي من تراكم الخبرات والتجارب الناجحة أو الفاشلة، فحين يَتكرر فشل أو نجاح، يتغذى الوعي بمعلومة تساعد في اتخاذ القرار، ولكن قد يغشى الوعي ضباب يغطي عليه ويبطل أثره، ضباب الخوف من تحمل نتائج تطبيق هذا الوعي، وسأضرب مثالا يوضح ذلك.

* * *

ارتفعت نسبة الطلاق في مصر، وخاصة بين حديثي الزواج، والمدهش أنَّ معظم الحالات أثمرت أبناء، ولهذا تكثر الأمهات تحت الثلاثين من المطلقات، كل الناس يعلمون أنَّ فرص المرأة في الزواج تتقلص أو تتعقد حين يكون لها أبناء، وهذا الوعي لا بد أن يُترجم إلى قرار بديهي بضرورة استخدام وسائل طبية مؤقتة لمنع الإنجاب في الأشهر الأولى من الزواج، فرصة كي تظهر الطباع والعيوب والمميزات بحجمهم الطبيعي، وبعدها يقررا الإنجاب.

ولكن في الواقع يحدث العكس، أغلب من يتزوج يحرص بقلق على الإنجاب من أول يوم، وهذا يدل على أنَّ الولد والبنت يتزوجان وهما يحملان نفسية المغامرة، ويبعدا عن خاطرهما احتمال الفشل في الزواج، وهذا يرجع لأسباب عديدة تتطلب مقال آخر، ولكن نفسية المغامرة يُغذيها مخاوف عميقة وعديدة زرعها المجتمع في نفوسهم فيتزوجان بنفسية المندفع إلى المجهول، ويتمنيا الحظ السعيد.

هذا المثال يعلمنا أنَّ الوعي ليس دائما غائبا ، ولكنه محجوب وراء نفوس مكبوتة ومخاوف وأمراض نفسية ومجتمعية كثيفة، والنتيجة هي رحلة شقاء متكررة تحمل روح المقامرة، فيتخيل كل إنسان أنَّه الشاطر حسن الذي سيفوز ببنت السلطان رغم أنه سبقه عشرات من الفاشلين في مغامرتهم، والحكمة قريبة من الجميع ولكنهم لا يبسطوا لها الأيدي ولا يلتقطوها

عود الكبريت

وهب اللهُ الإنسان حياة واحدة، هي أغلى ما يملك، ومع ذلك يغامر بالتضحية بتلك الحياة ويجعلها فداءً لقيم كثيرة، يثني الناس على شهداء الدفاع عن الدين والوطن والحرية والعِرض ..إلخ، والسرديات كثيرة عمن قتل في سبيل قيمة ولكن نادرا ما تتحدث عمن عاش في سبيل قيمة، وكما قال أحد الحكماء: "نحن نسارع للموت في سبيل الله ولا يخطر ببالنا العيش في سبيل الله" وأشهر القيم جدالا هي قيمة الشَرَف أو العِرض عند العرب، والتي تحتاج ترتيب في سُلَّم القيم.

قطعت عصابة مُقَنَّعة الطريق على رجل ومعه أمرأة، هي زوجته أو أخته أو أمه، وضع الأول السكين على رقبته، ووجه الثاني مسدسا إلى وجهه، وقبض الثالث على المرأة ينوي اغتصابها، لو قاوم الرجل سوف يُذبح بالسكين أو يُقتل بالسلاح الناري، ثم ينفردوا بالمرأة، وبعد اغتصابها ربما تُقتل أو تُلقى في الطريق ويهربوا فارين بجريمتهم.. أكثر السرديات العربية تُجْمع على خيار واحد، التهور بالمقاومة حتى لو تعرض هذا الرجل للقُتل، ولو قام كل منَّا بتوجيه هذا السؤال لمن حوله من الناس لكان الإجماع على هذا الرأي.

في فيلم أمريكي، قام رجل مع زوجته برحلة على متن يخت خاص، شاهدا جسدا لرجل يطفو على الماء، فقاما بإنقاذه وعلاجه حتى استرد عافيته خلال أيام قليلة، وفجأة غدر الشاب بالزوج وصرعه وألقاه في قارب صغير، ثم قاد اليخت منفردا بالزوجة التي هم بالاعتداء عليها وهي مقيدة، وبالإضافة لقوته الجسدية كان مسلحا، فقالت له في محاولة للمراوغة: "أعتقد أنك ستستمتع أفضل لو فككت وثاقي، فأنا لا أمانع"، ففك وثاقها، وزيادة في خداعه حاولت إظهار انفعالها الجسدي معه حتى اطمأن الشاب وتراجع حذره، ثم حانت فرصة فأمسكت بقطعة من الحديد وضربته عدة ضربات على رأسه بقوة ثم أوثقته بإحكام، وأدارت دفة اليخت عائدة بحثا عن زوجها حتى وجدته وأنقذته.

كنت شابا عندما شاهدت هذا الفيلم فأصابتني دهشة وحيرة، ومصدر هذه الحيرة يرجع لأني عربي، فالعربي سواء كان رجلا أو أمرأة، مسلما أو مسيحيا، سوف يشعر بنفس الحرج.

أحاول تخيل إحداث تبادل في شخصيات القصة، كأن تصبح المعتدية امرأة قوية ماهرة في المصارعة، كما في أفلام الحركة الأمريكية، فتصرع الزوجة والزوج، ثم تضع الزوجة في القارب وتنطلق باليخت مع الزوج المقيد، ثم تحاول اغتصابه، هل لو لجأ الزوج لنفس حيلة الزوجة في القصة السابقة سيتقبل العربي؟ أعتقد أن العربي سيتقبل القصة ويمدحون الزوج لذكائه ولن يشعر العربي بالتناقض.

نشر الدكتور "عارف حجاوي" في تدوينة على تويتر قال: "الروابط بين العرب اللغة والتاريخ والجغرافيا وموقفنا من الجنس، موقفنا من الجنس بيفطس من الضحك، أمانة الله لا تترجموا هذه التغريدة حتى لا نصبح مضحكة الشعوب".

عندما حدث الغزو الأمريكي للعراق، اشتهر سجن "أبو غريب" وانتشرت صور رهيبة يقشعر لها البدن، فقد أجبروا السجناء الرجال على الممارسة الشاذة مع بعضهم، وإن رفضوا سيذيقونهم العذاب الذي لا يطاق، صورهم المنشورة وهم كومة من البشر العراة فوق بعضهم شهيرة، ووصلت الإهانة لأقصى حدودها، نظرا إلى أنَّ الأمريكان درسوا نظرة العرب للجنس والشرف والإهانة الجنسية، الإهانة في ما يخصه من نفسه أو نسائه سواء كانت أم وزوجة، أو أخت وابنة ..الخ، مع العلم أن هذه الطرق من التعذيب لا يخطر أن يستخدموها مع إنسان غربي، فليس لديهم نظرتنا وثقافتنا تجاه المرأة، فأفكار الغربي والعربي عن الجنس والكرامة والشرف مختلفة تماما.

السؤال الهام هو: "هل كان على السجناء أن يرفضوا ويضحوا بحياتهم؟"

"أليس هذا يعتبر الشرف الذي يموت المرء في سبيله؟"

عقب غزو العراق للكويت، نشر عبد الوهاب مطاوع في بريد الأهرام، رسالة من طبيبة مصرية، كانت في تعمل مع زوجها في

مستشفى كويتي حين هجم الجنود على الجميع، وحدث هرج واغتصاب وبذل الجميع جهده في مقاومته حتى قتل أحدهم مدافعا عن اغتصاب زميلة بالمستشفى، واغتصبت الطبيبة مع النساء أمام زوجها، مرت التجربة وعادا إلى القاهرة، اشتكت في رسالتها من مشاعر ثقيلة في نفسها ونفس زوجها الذي ينفر منها دون أن ينطق، وفي نفس الوقت كانت تعذره لمشاعره تجاهها، وفكرت في أن تريحه بأن يطلقها، كانت تتحدث وكأنها تلوثت بالاغتصاب، ثم أرسل الزوج رسالة نشرها الكاتب، يشرح له مشاعره ويؤكد أنه فعلا فكر في طلاقها، رغم علمه بأنها ضحية.

أنكر مطاوع عليها منح زوجها العذر في نفوره وهي الضحية، وفي هذه القصة نموذج لثغرة خطيرة في تكوين الرجل العربي والمرأة العربية اللذين لم يحصنهما التعليم الجامعي من تلك الثقافة الجاهلة المتخلفة التي تكدر الحياة.

في جريدة المصري عام 2014، انتقد الإعلامي "عمرو أديب" فتوى الدكتور "ياسر برهامي"، نائب رئيس الدعوة السلفية، حين قام بالقياس على فتوى للإمام "عز بن عبدالسلام"، عن وجوب تسليم المال للصوص تحت تهديد القتل، فأفتى "برهامي" بأنه حين تَشهر عصابة السلاح في وجه الرجل وتهم باغتصاب زوجته، يجوز له حفظ النفس، وقال "أديب" موبخا: "أنا من حقي أقول رأيي

في حاجة زى كده، لأنها فتوى مؤلمة فى مجتمع بنحاول نصحي فيه روح النخوة ونمنع أفكار التوحش، بلاش زوجتك هنقول مش من دمك، طب لو حد حب يغتصب أمك، أنا نفسي أسأل الشيخ ياسر، لو أمك أو أختك ماذا ستفعل؟"

وبغض النظر عن موقفي من صاحب الفتوى ولكني أتفق معه في أنَّ النفس، سواء نفس الرجل أو المرأة، أولى بالحفظ، فالذي يقاوم شخصا مسلحا بينما هو أعزل سوف يقتل حتما، وبعد أن يُقتل سوف يتم الاغتصاب، ففي ترتيب القيم لا بد أن نعرف أن حفظ النفس أولى من المغامرة بها في مقاومة يائسة، هذا بالإضافة إلى أنه لو قُتل فسوف تغتصب وتقتل، فالقتل يجر إلى قتل، ولكن لو حفظ نفسه فهناك احتمال أن يمر الحدث بحفظ روح الرجل والمرأة.

في أحد المنتديات الأدبية ذكرت تلك القصة، فقالت أديبة: "نعم أفهم كلامك ولكن لا أعرف لو حدث هذا الموقف كيف سأنظر إلى عين زوجي؟"

هذه الأديبة المثقفة لم تستطع التغلب على نشأتها، ولا شك أنها لم تتخيل تلك المعاناة في جوهرها جيدا، فمن المعروف أن العلاقات الجنسية تتعكر بسهولة، الزوج والزوجة يجتهدان في خلق مناخ رومانسي للقاء جسدي، أضواء وموسيقى وغرفة مغلقة وروائح، ومع ذلك مجرد حدوث أي طارئ يفسد كل شيء، رنين تليفون،

زائر يطرق الباب، سماع صوت صاخب بالخارج، كيف نتخيل أنَّ الاغتصاب تحت تهديد السلاح وبشكل علني وعنيف يمكن أن يخلف أي متعة أو ذكرى طيبة، هذا اعتداء ومعاناة، والمعتدَى عليه ضحية القسوة، يجب الرفق به ومعالجته كي يشفى من التجربة، فلا فرق بين الاغتصاب والضرب والطعن.

الاغتصاب جرح مادي ومعنوي كبير، ولكن الحياة تمنح الإنسان فرصة لمعالجة جروحه والشفاء منها، وربما معاقبة المعتدي، وهذا الموضوع يحتاج لمراجعات ودراسات جريئة تتعامل مع ثغراتنا الفكرية التي لم تراجع منذ مئات السنين، فلم نعد نملك رفاهية التخلف.

التأنيب

يفرح الزوج الشاب بخبر حمل زوجته الذي يمنحه لقب "الأب"، يتمنى سرا وجهرا أنْ يكون المولود ذكرا، يُحقق الله أمنيته الساذجة، يقيم للرضيع حفل "سُبوع"، ثم تمر الأيام ويتراجع الفرح بولي العهد، فآفة النعمة الاعتياد، يكتشف أنه حين دعا ربه قائلا: "يارب ولد"، نسي أن يُلحق طلبية الدعاء بتفاصيل أخرى قائلا: "ولد مؤدب، مطيع، متفوق ويحقق كل أحلام الأب"، الأحلام التي فشل في تحقيقها لنفسه، يريد الأب أن يتفاخر بأبنائه مثلما يتفاخر بأشيائه.

يتمنى الأب أن يعافي أولاده من العقبات والآلام التي أجهدته في حياته، يظن أنه يكفيه سبقه لهم في تجربة الحياة ومعرفة مسالكها، عليه فقط أن يحكي لولده ثم يصف له خريطة الحياة الصحيحة، وعلى الولد أن يتلقف تلك التوجيهات بلهفة وتقدير ثم يُطَبِّقها، وبهذا يصبح أفضل وأسعد من أبيه، هذا ما يتمناه الآباء لأبنائهم، يتناسى الأب أنَّ أباه مارس معه تلك اللعبة وفشل، وأنه عانده وأصر على خوض رحلة الحياة بنفسه.

ينشب بين الأب والابن صراع حافة الهاوية، الابن يدخن، يهمل في دروسه، يصاحب أولاد لا يرضى عنهم الأب، يتكلم مع الأم بطريقة فيها جرأة، يلوح بيديه مع الكلام، لا يحسن الإنصات.

تدور دائرة اللوم والتوبيخ ويتطور إلى صدام متكرر، يشعر المراهق أنَّ أباه يبالغ في الوصاية عليه، يريد سجنه في نموذج في خياله، يتوهم أنَّ الدخول في هذا النموذج هو شرط حب الأب، يشعر بالاضطهاد، يتطور صراع الإرادات وتسود بين الطرفين مشاعر الفشل وتتكدر الحياة.

في كتاب "يوسف إدريس" الأب الغائب يقول: "أعجبتني الحكاية التي قصها علينا الأديب "عبد الله الطوخي" وهو يروي لنا كيف كان جالسا مع عائلته في منزله، ثم فجأة سمع ضجة وصراخا وعويلا في الشقة المجاورة، فأسرع ودق على باب جاره لتفتح له ابنته ويجد الرجل صاحب الشقة وهو ضخم الجثة فارع الطول ينهال بقطعة حديد على جهاز التليفزيون في بيته ويُحطمه ويُفتته قطعا قطعا أمام زوجته وأبنائه وبناته دون مراعاة لاستعطافاتهم ورجواتهم وهم يقولون: والنبي يا بابا.. بلاش تكسره بلاش. فيرد عليهم بصوت عال كالرعد قائلا: "أنا مش بابا، هذا هو بابا" قاصدا جهاز التليفزيون منهالا عليه بشدة أكثر، تحطيما وتكسيرا حتى فتته تماما".

وهذه القصة تجسد تعقيدات العلاقة داخل الأسرة بسبب عوامل خارجية اقتحمت حياتهم الخاصة.

يحكي صديقي: "في السنين المبكرة من زواجي، كان أولادي وبناتي أطفالا، فكنت أرجع من العمل لا أبغي سوى السكون، فأجلس

ساكنا أو أستمع للتليفزيون، من المعتاد تشاجر الأطفال المتكرر، ولم أكن أطيق الضوضاء والكلام الطفولي، فأنهرهم وأتعامل معهم بنفاذ صبر، وأحيانا أضربهم، والأولاد يجننوا العفريت بكثرة شجارهم، لو تدخلت بينهم حين يتشاجرون؛ لا بد أن أكون ظالما لأحدهم ومتهما بالانحياز للطفل الآخر، حتى أنني في إحدى المواقف ضقت ذرعا بهم، فحكمت عليهم أن لا يتحدثوا معا، وبهذا ظننت أنني حللت المشكلة، فكان مشهدا مضحكا وسخيفا، ظل كل منهما ينظر للآخر ويضع يده بقوة على فمه ليكتم ضحكته، لم يكن ضحكهم إلا على هذا الأب الساذج الذي لم يفهمهم، ثم بعد دقائق واصلوا اللعب معا".

"موقف الزوجة كان دائما مختلفا، تمنح إنتباهها لهم، تنصت وترد وتجادل وكأنها طفلة مثلهم، تجلس في وسطهم، وذقنها المسكين يترنح بين الأطفال، كلما نَظَرت إلى اليمين، يمد الطفل الآخر يده إلى ذقنها لكي يحوله إليه ليحدثها، وهكذا تظل تكلمهم وهي مستسلمة لأيديهم، وأتعجب من صبرها".

نحن للأسف تربينا لنكون أبناء مطيعين، وليس أزواجا ماهرين وآباء متفهمين لدورنا، وقد تكون الفتيات أفضل حظا لتلقيهن قدرا من التدريب المنزلي الذي يُعِدَّهن نفسيا لتلك الوظيفة.

في هذا الزمن لا تكفي الأم، الأب الذي سيتملص أو يتعالى على التفاعل والحوار مع الأطفال، سوف يتجاهلونه تماما في حواراتهم

عندما يشبُّون عن الطوق، سوف يكونوا شبابا راشدين، يدور الحوار من حول الأب وكأنه غير موجود، فمن لم يهتم في الصغر، كيف يجد له مكانا في الكبر؟

يتحدث عبد الوهاب مطاوع في كتابه "أهلا مع السلامة"، معبرا عن الأب الذي كافح، سواء بالعمل الشاق طوال اليوم وعلى مدار حياته، أو بالسفر للخارج ليستطيع الإنفاق على أولاده، فيكون أولاده متفوقين دراسيا ومستريحين في حياتهم بفضله، ثم تأتي مرحلة من حياته، يمرض ويلزم الفراش.

عندما زاره عبد الوهاب مطاوع، وجده يقتله الملل، يجري حوار في البيت خارج غرفته، لا تتوقف الحوارات بين زوجته وأبنائه عن شؤونهم وتجاربهم العاطفية والحياتية وغيرها، يعلو الضحك والصراخ والجـدال الحماسي في المنزل بينما هو وحيد معزول، سيناريوهات غاب عنها في رحلة كدِّه في الحياة، يدور فيلمها في حضوره ولأول مرة، إحساس المنبوذ يخترقه ويلفه، مهما اجتهدوا في الاحتفاء به.

علق عبد الوهاب مطاوع قائلا: "ليس للأب المكافح للأسف مكان بينهم، كأنما كانت حياته تجري في مجرى موازي لمجرى حياتهم، فتوازى النهران، لكنهما لا يتقاطعان ولا يتلامسان إلا في أضيق الحدود وأكثرها رسمية، هي صورة متكررة من الحياة، قد تحدث لنا طوعا، قد تحدث لنا قسرا، ولكننا نتجرعها في النهاية مريرة".

يحكى صديقي: "في مستهل حياتي الزوجية، رزقني الله تعالي بأطفال، لاحظت زوجتي أنني قاسي على اولادي، أحاول تأديبهم بالعنف والصراخ، رغم أنني أكون لطيفا ومتسامحا مع الأطفال الأخرين".

ولدهشتي كان رد فعل الأطفال عكسيا وفاشلا، فقالت زوجتي لي: "إن في خيالك رعبا من نموذج مشوه تخاف أن يطول أولادك، وخشيتك هذه قد تتسبب في تلقين الأولاد الشخصية السيئة التي تحذر أن يتطبعوا بها. أنت مثقف ولكن لا تعرف معنى طفل".

تصادف سماعي لمتخصص تربوي، قال: "عندما يكتشف الأب أن ابنه تملكته عادة سيئة فهو أمام ثلاث خيارات".

الأول: أن يكون أبا متخصصا في التربية ويفهم نفسية الأبناء و يُقنع ابنه بترك العادة، ولكن هذا الأب يندر وجوده.

الثاني: أن يحاول مجتهدا إقناع ابنه باللين والشدة ثم يصطدم به، وحتما ستكون النتيجة عناد الابن وأن تسوء العلاقة بينهما.

الثالث: أن ينصح ويتحاور بالكلام اللين الحكيم دون إهانة، ويتركه دون أي ضغط منه، وفي هذه الحالة هناك احتمال أن يكف الابن أو يستمر، ولكن لن تسوء العلاقة بينهما.

فاخترت الخيار الثالث وأصبحت ناصحا لأولادي ومحاورا لهم ورفعت الضغوط عنهم و صادقتهم وكانت النتيجة كالسحر.

ورغم كل هذه الحكايات، إلا أنه لا بد من الانتباه لخطر التأنيب، التأنيب لعنة، فلا تدع أحدا أو حادثا يستنزفك عاطفيا أو ضميريا، أنت كأب، لا يُطلب منك أن تكون الأب المثالي، ولا أن تفهم كل قواعد وفنون التربية، هذا لا يقدر عليه أغلب الآباء، ولكنك تكفلت بالأولاد ووفرت لهم ما قدرت عليه ماليا ونفسيا وعاطفيا، أعطيتهم ما في جعبتك ولن تتوقف عن العطاء، فإن لم يستغل الأولاد هذه الرعاية، ونالهم قصور أو وقوع في فخ أخلاقي أو فخ من فخاخ الدنيا، فلا تؤنب نفسك، دعك من الكلام الكثير الذي يتناثر هنا وهناك، دعك من حوارات الأفلام عندما يقول الولد لأبيه: "لماذا أنجبتونا طالما لستم قادرين على طلباتنا".

عليك الرضا بالقضاء والقدر كما هو، فما تساقط منك أو من أبنائك ليس لك حيلة فيه، لقد كنت أبا عظيما، إياك والتأنيب، عليك بالفخر بنفسك وأبنائك.

حواجز شفافة

في كتاب "باشوات وسوبر باشوات" للدكتور "حسين مؤنس"، حكى قصة تطور الإقطاع الزراعي، بداية من عهد "محمد علي"، حين تكونت طبقة "الباشوات" التي خرجت منها الطبقة السياسية والفكرية، ثم رحل الإستعمار ومعه الأسرة العلوية، فاحتل مكانها طبقة أخرى أكبر، أطلق عليها لقب "سوبر باشوات"، وهي التي نالت الثروة والسلطة بسبب الإحتكار وليس الإقطاع الزراعي، ومالت إلى اليوم.

وبمرور السنين تضخمت طبقة السوبر باشوات، ضمت قادة السياسة والفنون والثقافة والصناعة، فتكونت شبكة معقدة وصلبة من المصاهرات والشراكات والتحالفات بين كل هؤلاء، وزاد على ذلك ما تشتهر به مصر من تعيين أبناء العاملين في الوظائف، فأصبح أبناء تلك الشبكة يرثون وظائف وأموال ونفوذ أهلهم، فتوسعت دائرة الاحتكار للسلطة والثروة والإعلام والثقافة، حتى انتهى الأمر إلى أغنية غريبة أطلقها المغني "علي الحجار" بعنوان "أنتم شعب واحنا شعب"، وأذيعت مرة واحدة فقط وكأنها إعلان واقع في جريدة رسمية.

* * *

صرَّح الفنان المسرحي "محمد صبحي" قائلا:

"ليس من المعقول حصول ممثل على أجر 50 مليون جنيه بينما راتب المعلم 2000 جنيه"

* * *

في الفيلم مصري "اضحك .. الصورة تطلع حلوة"، قام الثري في الحفل بإلقاء مفتاح سيارة في حوض السباحة، ومن يعثر عليه يفوز بالسيارة، واستمتع الثري بمنظر أصدقائه الرجال والنساء بملابس السهرة، الذين ألقوا بأنفسهم ليتسابقوا على المفتاح، ولمح المصوِّر المفتاح فألقى بنفسه وحصل عليه، رفض الثري فوزه، لأنه جاء لمهمة خدمة الأثرياء وليس ضيفا".

هذا نموذج لسفه الإنفاق في اللهو، ثري اليوم يعلن عن ملايين الجنيهات لأعضاء فريق كرة القدم حين يفوزوا في بطولة، أثرياء المنظرة والدعاية والسفه، أثرياء معزولون عن الطبقة الفقيرة ويحتقرونها.

القصتان تجسدان أحد ثمار "الاحتكار"، في الماضي كان الإقطاعي يُنفق ويَمنح من ريع صناعة أو زراعة، فكان الأجر معقول لأنه يستند لعملية إنتاج طبيعية، ولكن مع الاحتكار يصبح المكسب بلا حدود وبلا تعب، وهنا يسهل منحه بسخاء أسطوري، وليته يُمنح

لبناء علمي أو ثقافي يصب في مستقبل البلاد، ولكن يُمنح لإنتاج أفلام ضخمة موجهة لتجميل الاحتكار أو تمويل نادي كروي يثير الجماهير ويشغلهم عن القيم الكبرى والعمل المنتج.

* * *

هذه هي قصة الاحتكار، وهي زرع لا يثمر سوى "الإحتقار".

عندما ينقسم الشعب إلى طبقتين وتتسع المسافة بينهما لهذه الدرجة الفلكية، تحتقر الطبقة "الفاحشة الثراء" شعب الحرافيش، وليت الأمر يتوقف عند ذلك، بل تنتقل عدوى الاحتقار كفيروس خبيث إليهم، فيحتقر الحرافيش بعضهم بعضا ويتعالى بعضهم على بعض.

ما السر في تسرب هذا الاحتقار بين الحرافيش وانتشاره بهذه الكثافة؟

في الماضي قبل الانفتاح "الساداتي" والذي سمَّاه المفكر "محمود السعدني" انفتاح سداح مداح، كانت الفروق بين المصريين قليلة وطبيعية، ليس فيها طفرة، ثم فجأة حدثت ظاهرتان، الإنفتاح الاستهلاكي والهجرة للعمل بالخليج، هنا بدأت دوامة الثراء السريع، وفوجئ الموظف أو الحرفي أو الفلاح بجاره الذي له مثل مؤهلاته وظروفه، يثري فجأة ويمتلك أدوات رفاهية وبِنايات فاخرة في حين يظل جاره يحيا وفق دخله الشهري أو وظيفته بصعوبة، وهنا بدأ نشوء طبقة تثري سريعا بدون سابق كفاح سوى الحظ، المؤهلات

واحدة ولكن هناك من هاجر واغتنى وهناك من ظل في بلده، وفي ظل هذا التفاوت العنيف يصعب الاحتفاظ بالضمير الحي والنفسية السليمة، ومرت السنوات وحدث ما كان متوقعا من شيوع نفسية أثرياء الحرب، فكثرت النماذج الكثيرة للشخصيات التي تتاجر في أشياء بسيطة ثم فجأة تمتلك عدة بنايات وثروات تتفوق على كسب كثير ممن سافر، وبرزت شخصيات أخرى تشتغل بوظائف براتب محدود ثم تثري فجأة وتتضخم ثروتها ويعظم نفوذها.

* * *

تكرر كثيرا صدور تصريحات مماثلة لقول أحد رجال البوق الإعلامي :

"خمسة و تسعون في المائة من الأزمة الإقتصادية بسبب الشعب المصري"

وهذه الإهانة خرجت كثيرا من أبواق الإحتكار لنشر وهم أنَّ الشعب ورم خبيث ويجب أن يُستأصل حتى يعيش الوطن.

في أواخر عهد الرئيس "مبارك"، قرأت في جريدة قومية مقالا لصحفي شهير مقرب من النظام،

قال فيه:

عقدت الحكومة صفقتان لاستيراد لحوم أضاحي من السودان وإثيوبيا لتخفيف المعاناة عن المواطنين، وكان مقررا طرحها في

الأسواق قبل عيد الأضحى بأسعار مناسبة للجمهور، وذلك نظرا لارتفاع الأسعار الجنوني، علمت من مصادري، أنَّ محتكري هذه التجارة في مصر قالوا بالتعبير المصري: "علي جثتنا أنْ تدخل هذه الصفقة مصر"، ثم خرج علينا وزير المالية "يوسف بطرس غالي" ليلغي هذه الصفقة، وليست الدهشة فقط بسبب إلغائها المفاجئ، ولكن لغرابة التبرير الذي صرح به، حيث قال: "ألغيت الصفقة لأنها مُجْحِفة بالطرف البائع"؛ بمعني أنها صفقة ليست مُنْصفة للسودان وأثيوبيا.

وكان استغرابي لنشر المقال في جريدة الأهرام ومن كاتب محسوب علي النظام، وكان قد سبقه تصريح مسؤول كبير وصف الفساد بأنه "للرُكَب".

يستحق تصريح وزير المالية أن يوضع في موسوعة "جينز" للتصريحات الصادمة، فالوزير لم يتعب قريحته ولا قريحة مساعديه في محاولة إصدار مبرر لطيف متجمل حتى لو لجأ للكذب، ولأنه يعلم أنَّ الحرافيش لم يعد لهم شوكة ولا كرامة، لم يجهد نفسه ليداري احتقاره فأصدر هذا التصريح.

في الفيلم المصري "عسل أسود" مشهد النهاية، حين قرر الشاب "مصري" وهو على ظهر الطائرة المتجهة لأمريكا أنه لن يسافر، فتظاهر بالمرض واستدعى المُضيفة، فلما أخبرت قائد الطائرة، سألها

عن جنسيته فقالت: "شكله مصري" فقال: "أعطيه أي مسكن"، وعندما أدرك "مصري" أنها لن تفعل شيئا، لوَّح أمام عينها بجواز السفر الأمريكي، أسرعت إلى قائد الطائرة قائلة: "الحق يا كابتن ده طلع أمريكاني"، فأعلن ميكروفون الطائرة ضرورة ربط الأحزمة استعدادا للعودة للمطار.

هذا المشهد ليس شطحا بالخيال، ولكنه واقع لا يختلف عليه أحد في مصر، مع ملاحظة أنَّ طاقم الطائرة مصري!، وهذا يطرح سؤالا عن إنخفاض درجة تعاطف المصريين معا، بحيث أصبح المصري مُرَوَّضا نفسيا لممارسة أو مواجهة تفاوت في المعاملة بين المصري والأجنبي.

بعد غزو العراق عام 2003، وسريان النظرية الأمريكية "الفوضى الخلَّاقة"، ضغطت أمريكا على الحكومات العربية للسماح ببعض الحريات، وبدأت الصحافة تتحرك بقدر من الحرية أكبر، وأتذكر قصة نشرت في جريدة "الأهرام" تحكي عن مصري تزوج من أمرأة أوربية، وأنجبت طفلتين، وحدث خلاف حين أرادت الزوجة الأوربية أن تعود لبلدها، فسافرت وتركت زوجها وبناتها، ثم تواصلت مع السفارة المصرية ببلدها وطلبت ضم البنتين، قامت الأجهزة الأمنية باستدعائه هو وأهله وضغطوا عليهم بكافة الوسائل حتى أخبرهم بمكان البنتين وأجبروه على التوقيع بالموافقة على سفرهم لأمهم بلا عودة، وكانت تلك الحادثة التي لا تنسى،

رجوع بظلال نظام قديم كان للأجنبي ميزة قضائية على المصري فكان طليق اليد بمصر حيث يعلم أنه مهما ظَلَم فسوف يُحاكم لدى قضاء بلاده التي ستنحاز له.

* * *

حين تقدم عرابي وزملائه بطلباتهم، تم استدعاءهم إلى ديوان الجهادية بقصر النيل، وانعقد مجلس عسكري وجردوهم من سلاحهم وساقوهم للسجن، ثم وقف "خِسروا" باشا كبير الجراكسة خارج باب السجن وصار يهزأ بهم بقوله:

"ايه زنبللى هارف لا " يعنى فلاحين شغالين بالمقاطف، احتقارا بالمصريين.

من الطبيعي وقتها أن يصدر هذا التوبيخ من جركسي ولكن ليس طبيعيا أن يصدر اليوم من مصري تجاه مصري آخر، وهذا هو التغيير الذي طغى اليوم في الشعب المصري، فمن يعاين وسائل التواصل الإجتماعي يرصد بسهولة ضخامة كلمات جلد الذات والتوبيخ، حيث سرت موجة تعالي وتبرؤ طبقي وتداول إهانات بين المصريين.

* * *

يحكي صديقي: "أنه حين كان في المملكة السعودية، لاحظ أن هناك سلعا كثيرة تباع بأسعار منخفضة، في حين تباع في مصر بسعر

مرتفع، والمعروف أن الدخل في مصر أقل بكثير من الخليج، وحين سأل عن السبب علم أن هذه السلع معفاة من الضرائب والجمارك، هذا بالإضافة إلى أنَّ سوق الاستيراد مفتوح، فتأتي تلك السلع من بلاد عديدة متنافسة، بينما في مصر تفرض الضرائب والجمارك وتحتكر السلع، ولا يوجد أمل في الإعفاء الضريبي أو توفير فرص التنافس التي تُضَيّق على المحتكرين، فالذي يشتري شركة أو مصنعا في مصر يشتري معه السوق المحتكر".

* * *

هذه الدائرة لن تنتهي على خير، ولهذا يجب على الأفراد والنخب والسلطة أن يسرعوا بتفكيك هذا الوضع الخطير الذي ابتلي به مجتمعنا.

أنصاف وإنصاف

في حفل، جلست امرأة على المائدة بجوار برنارد شو، فسألها بهدوء: "سيدتى هل تقبلين أن تقضى معي ليلة بمليون جنيه استرليني؟"، فابتسمت المرأة وقالت: "طبعاً بكل سرور"، فعاد وسألها: "هل من الممكن أن نُخفض المبلغ إلى عشره جنيهات فقط؟، فغضبت المرأة وصرخت فى وجهه قائله: "من تظننى أكون؟"، فقال لها بهدوء شديد : "سيدتى. نحن عرفنا من تكونين، لكننا فقط نختلف على الأجر".

تدفعنا هذه القصة إلى طرح سؤال هام، هل القيم تتجزأ أو تنقسم أو تنكسر لأي سبب؟

لا يمكن أن يوصف الإنسان بالعِفَّة إلا حين تصمد تلك العِفَّة أمام كل المغريات، كبيرة أو صغيرة، التزام لا يتوقف على ظرف خارجي، فالقيم مثل الإيمان، فالمؤمن لا يتنازل عن إيمانه مهما كانت المغريات أو الضغوط.

هي القيم العليا، فلا يعلو عليها شيء، فلا يوجد نصف صدق، هناك صدق مقابل كَذِب، لا يوجد صدق معجون بالكذب، ولا صدق مغلف بالكذب، وبالتالي لا نصف حرية ولا نصف عدل، ولا نصف أو جزء في القيم، فهذا منزلق الإنسان، وخاصة الذي يحمل قيما ويسهى في خضم أحداث الحياة عنها وعن صلابتها ونقائها.

من المشاهد السينمائية التي لا أنساها، رجلا يمسك بورقة تحمل شيكا به رقم فلكي، يستطيع هذا الرقم أن يقفز به إلى طبقة إجتماعية لم يكن يحلم بها، وأن يُحصِّنَه ماديا بقية عمره، فيحيا مُرفَّها بلا عمل ولا كفاح، هذا المبلغ رشوة كي يخالف ضميره وييسر وقوع ظلم، فيقول لصديقه:

"كم هي القوة الهائلة التي أحتاجها لتمزيق هذه الورقة؟".. ثم مزقها.

الإغـراء هو الذي يُلين القيم ويشوش على الضمير، والإغراء بزجاجة خمر أو أمرأة لعوب ليس دائما الذي يهزم القيم، لأنه إغراء مباشر بلا قناع، ولكن الذي يخدع وينجح كثيرا هو الإغراء المغلف بغطاء نبيل، مثل مبرر مصلحة الدعوة، أو مصلحة فئة من الناس أو منع الضرر عنهم، لأجل تلك المصالح يقرر الملتزم بالقيم أن يتماهى مع الظلمة في خطوة يراها مؤقتة، وهو ينوي أن يعود بعدها للطهر الخالص، ولكنه يدرك متأخرا تورطه وصعوبة التراجع.

في الثمانينيات كان صراع بين السلطة والتيار الديني السياسي للسيطرة على النقابات، وهمَّت السلطة بتمرير قرار بإحدى النقابات الكبرى يُضَيِّق على فُرَص التيار، فطالبوا بعقد جمعية عمومية، فذهب صديقي مسرعا ليحضر تلك الجمعية ويُصَوِّت برفض هذا القرار، وبينما هو جالس نظر حوله فتعرف على بعض الأصدقاء من التيار

الذين ليسوا أعضاء في النقابة، وتعرف أيضا على أصدقاء من الحزب الحاكم ليسوا أعضاء في النقابة، وكان الهرج قائما بحيث لم يحدث تفتيش أو طلب بطاقات إثبات العضوية من كل فرد، وتم إبطال القرار بسبب هذا الحشد وانتهت الجمعية العمومية، وعاد صديقي ليلتقي برؤسائه في التيار، وتساءل عن تفسير ما حدث!، فقالوا له: "لم يكن أمامنا وقت واضطررنا لهذا"، وتعللوا بأن الحكومة تفعل نفس التزوير، فسألهم: "هل الغاية تبرر الوسيلة؟ هل التمسك بالقيم يتوقف على الطرف الأخر؟ هل يباح الغدر مقابل الغدر؟، ألم نتعلم منكم، أنَّ في الإسلام، الغاية شريفة والوسيلة شريفة!"

ولما لم يقتنع غادرهم وكف عن الأيديولوجيا.

هذه القصة توضح صعوبة الاحتفاظ بالقيم حين يكون الطرف الأقوى لا يخضع لها، فيكون امتحان صعب، ولكن رغم صعوبته فلا بد من التمسك بالقيم للنهاية مهما كانت النتائج، فالتمسك بالقيم يعطي مثالا للناس، حتى لو لم يستجب الناس في نفس الوقت، مع مرور الأيام وتوالي أمثلة الثبات على القيمة تميل القلوب للحق وتتغير الموازين وينحاز له كل الناس، ولهذا لا بد أن يصر الإنسان على الاحتفاظ بنبله مهما كان الثمن، فبنبله يحافظ على المثال أمام الناس، ويكون خير داعية للحق.

* * *

كتب أحد الولاة في عهد عمر بن عبد العزيز إليه: "إن أناسا من العمال قد اقتطعوا مالا ولست أقدر على استخراجه من أيديهم؛ إلا أن أمسهم بشيء من العذاب، فإن أذنت لي أفعل"، فكتب إليه عمر:

"إني أعجب من استئذانك إياي في عذاب بشر كأني لك حصن من عذاب الله، وكأن رضائي عنك ينجيك من سخط الله، فانظر من قامت عليه بينة فخذه بما قامت به عليه البينة، ومن أقر لك بشيء فخذه بما أقر به، ومن أنكر فاستحلفه وخل سبيله، ويم الله لأن يلقوا الله بخياناتهم أحب إلي من أن ألقى الله بدمائهم والسلام".

كم يوجد في التاريخ مثل هذه القصة، وعي مبكر بأن الإنسان قيمة عليا، لا ينتهك لأي سبب، ولم يكن قول عمر إلا تعبير عن مكانة الإنسان في القرآن الكريم.

* * *

في فيلم "المواطن مصري" يخاطب "مصري" والدته قائلا:

"تعرفي يامّه؛ أنا إتضحلي إن أنا عمري كله شبه المجموع اللي أنا جبته في ثانوية عامة. ٪50 نص نص يعني، بس مش أنا لوحدي، البلد كلها نص النص، عمرنا ما فرحنا للآخر ولا حزنا للآخر، عمرنا ما رضينا للآخر ولا غضبنا للآخر، دايماً نص نص، دايماً بنرجع قبل آخر المشوار، عشان كده لا بنروح ولا بنيجي، محلك سر، حتى

في الحرب لا بنحارب ولا مبنحاربش، بيكتبوها كده في الجرانين؛ "حالة اللاسلم واللاحرب"، البلد ذات نفسها مش جايبة مجموع يامّه.. مش أنا لوحدي".

هذا الحوار شديد العمق والقوة، يعبر فيه عن أكبر عامل من عوامل فشل كل الأيديولوجيات وكل الجهود، فالتدين نصف، والعلمانية نصف، والضمير نصف، والأحلام نصف، والديمقراطية نصف، وكل نصف فارغ لا بد أن يمتلئ بنقيضه، فالتدين النصف يمتلئ باسترخاء الضمير، والليبرالية النصف تمتلئ بأفكار عنصرية وديكتاتورية، والخير النصف يمتلئ بالشر، فالقيم هي حالة طهر تام، وأقل جرثومة تنال منها، والجرح لا يندمل إلا بالتطهير الكامل، ولهذا فلا بد من القيم الصافية.

حين حدث انتشار سريع للتيارات الدينية في السبعينيات، وزاد عددهم في المجتمع، ظهرت مشكلة خطيرة تتمثل في الفارق الكبير بين القيم الدينية والواقع الفاسد، واشتكى الشباب من انتشار الرشوة في كل مكان حتى أصبحت هي الأصل، وسأل الشباب شيوخ الصحوة الدينية، وفي تلك اللحظة كان متوقعا أن ينتصر علماء الصحوة للقيم العليا، فيرفضون الرشوة تماما، ويبتدعون وسائل جماعية سلمية من المتدينين لمقاومة الرشوة والتضييق عليها وتسليط الخطاب الديني بكل قوته على تلك الظاهرة، ولكن الذي

حدث كان عكس ذلك، إذ صدرت فتوى أشبه بقصة السيدة التي ساومها برنارد شو على عفتها، فأصدروا فتوى بجواز تقديم الرشوة بشرط أن تكون النتيجة أن تأخذ حقك فقط دون زيادة!، وبهذا تم فتح أول ثغرة قيمية في نوعية الفتاوي التي تصدر للتعايش مع الفساد والمساهمة فيه، وليس مقاومته ونشر الإصلاح.

* * *

في القرآن الكريم الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهَّ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهَّ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَّ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾. النساء (135)

وفي آية أخرى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للهَّ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَّ إِنَّ اللهَّ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾. المائدة (8)

قد يقع الإنسان في حرج لأسباب حساسة، مثل أن تتسبب شهادته في ضرر له أو لأهله، أو يقع عليه ضغط عاطفي بسبب غِنَى أو فقر أحد الطرفين، أو يحمل بغض في قلبه تجاه شخص، فأمره بالتزام قيمة العدل كاملة بلا أي حسابات.

شباب بلا أغلال

مدرسة ثانوية من أرقى وأعرق المدارس في أمريكا، خريجو المدرسة يلتحقون بأرقى الجامعات ويشغلون أعلى المناصب، وهي مدرسة للذكور فقط، صارمة وتقليدية لأنَّ جوهرها الكنيسة، التلاميذ من عائلات تنتمي لطبقات مكافحة ضَحَّت بالكثير ليلتحق أولادها بالمدرسة، يعين بالمدرسة مدرس جديد للشعر الإنجليزي، من خريجي تلك المدرسة، وفي أول فصل دراسي يطلب فتح الكتاب المقرر ويأمرهم بأن يمزقوا صفحات الأبواب الأولى التي بها الشعراء السابقون الذين هم رواد الشعر، يندهش الطلبة ثم يقوموا بتمزيق الصفحات الأولى في دهشة ومتعة وصَخَب. يقول لهم:

"كونوا أنفسكم، أطيعوا خيالكم وفكركم وافتحوا مسام الإبداع فيكم، لا تقلدوا أحدا، تعرفوا على من سبقوكم ثم مزقوا ورقتهم وأخرجوا ورقتكم أنتم، ويجب على من يأتي بعدكم أن يمزق ورقتكم بعد قراءتها، فلا تقديس للسابقين".

ويرجع ما فعله المدرس إلى فكرة أنَّ الانبهار بالعظماء يشل الإبداع، ويؤيد هذا ما يحكى عن الفيلسوف البريطاني "هوايتهد" حين سُئل: "لماذا أخرجت جامعة "كمبردج"، التي تغلب عليها نزعة العلوم،

عددا أكبر من الأدباء والشعراء، مقارنة بجامعة "اكسفورد"، التي تغلب عليها نزعة الآداب؟، فأجاب: "لأن دارس الآداب في اكسفورد توضع أمامه نماذج العمالقة من الشعراء والأدباء في جو يوهمه بأن هؤلاء قمم الجبال العالية التي يتعذر الوصول إليها، فيحدث أن تشل في الدارس موهبته إذا كان من أصحاب المواهب، وأما دارس العلوم في "كمبردج"، إذا تصادف أن كانت له موهبة الإبداع الأدبي فإن موهبته تنمو وتبدع دون أن تعرقلها العراقيل النفسية، فالنموذج العملاق له جلال يمنع الإبداع".

ثم يصعد المدرس على الكرسي ثم إلى مكتبه ويقف عليه، ينظر من أعلى إلى التلاميذ المندهشين، فيسألهم؛ "هل ترونني وترون الفصل؟" فيجيبوا: "نعم"، فيخبرهم أنَّ نفس المنظر يختلف بحسب زاوية الرؤية والارتفاع، وأنَّه في هذا الوضع الذي يرونه بهلوانيا، يرى منظرا مختلفا وأشمل للفصل، أمرهم أن يجرب كل تلميذ الوقوف على المكتب ليرى مثله، ويلمس الفرق، يصعد كل طالب بالتتابع على المكتب وينظر ثم يهبط، وبهذا تلقى التلاميذ الدرس الثاني.

الدرس الأول؛ "أعرف من قبلك ثم كن أنت، وأرني قطعة منك".

الدرس الثاني؛ "تعرف على أكثر الزوايا ولا تقعد في زاوية واحدة تنظر منها طوال العمر".

يخرج المدرس بهم إلى الملعب، حيث الهواء والسَماء والعُشْب، وبهذا ينتقلوا إلى مكان مختلف عن الفصل، يطلب من ثلاثة تلاميذ أن يمشوا معا، فسار الأول ثم حرص الثاني أن يمشي وفق خطوة الأول حتى لا تصطدم الأقدام، وهكذا فعل الثالث، ظلوا يُرَكِّزون على توافق وتناغم خطواتهم معا، والمدرس يقول: "واحد اثنين واحد اثنين واحد اثنين" ... ويصفق، وبتلقائية يصفق بقية التلاميذ الواقفين، واحد اثنين واحد اثنين واحد اثنين. ثم قال: "قف". وهنا شَرَحَ لهم الفكرة، ولكني أسبقه بشرح لوحة حَلَّقَت أمام خيالي؛

"لو تخيلنا الطابور عشرة ثم عشرين ثم ألف ثم ملايين يمشون وراء بعضهم ويضبطون خطواتهم؟ ماذا سيحدث؟، في البداية سوف يكون التكَلف والارتباك؛ ويحرص كل واحد على ضبط خطوته لتتناغم مع الذي أمامه، ثم يتعود الجميع تلقائيا على خطوة معينة ثابتة، ولنتخيل مجتمع من الملايين يمشي أفراده في طابور بتلك الخطوة الواحدة، سوف نجد المجتمع مثل قضبان القطارات الحديدية!، ما هي المساحة التي يحتلها القضبان في الأرض؟، مساحة قليلة جدا، بينما الأرض واسعة وشاسعة وحُرَّة في كل الاتجاهات، فيَتَكَدَّس ويتكعبل في سيره على الشريط الضيق.

قال الحكيم روبرت فروس: "هناك طريقان يتفرعان في الغابة وأنا اخترت الطريق الأقل اختيارا، لأنه الذي يصنع الفرق".

قال المدرس لهم شارحا: "في البداية بدأ كل واحد من الثلاثة خطوته وإيقاعه الخاص، ثم تخلى كل واحد عن إيقاعه وانتهوا إلى السير معا بخطوة ايقاعية واحدة، وبينما أنتم وافقون أخذتم في التصفيق! لماذا؟، لأن لدينا كلنا حاجة لأن نكون مقبولين ومتحركين داخل القطيع، فالتصفيق أدخلكم في إيقاعهم".

"اختاروا طريقكم ومساحة خطوتكم واتجاهها وتوقيتها وكيفيتها، أي فكرة تخطر لكم سوف يجدها الناس سخيفة وغبية وشاذة وكافرة، لا تتخلوا عنها قبل أن تختبروها، لا تتخلوا عنها قبل ثبوت فشلها، لا بد من أن تكون لك بصمتك وخطوتك وفكرتك ومبادرتك الخاصة".

ويتحرك الطلبة في كل اتجاه وبخطوات ذاتية مختلفة، ثم يجد طالب واقف مستندا إلى شجرة فيسأله فيجيب: "اخترت أن أقف ولا أتحرك"، فأعجبه كلامه.

يتأثر بعض التلاميذ به، ويقوم أحدهم بعمل متهور فيلومه الأستاذ قائلا: "لا تتهور فينفلت منك عمل دون تقدير العاقبة.. يكفي أنك كنت على وشك أن تخسر دروسي"

ثم يدور صراع بين ولد يهوى التمثيل ويتفوق فيه ويصفق له الجميع ولكن والده يرفض، شجعه المدرس أن يصارح والده ويفضي له

بكل أحلامه، يرفض الأب بقوة ويَخضع الولد ولكنه كان عميق المشاعر.. فانتحر سريعا.

قررت إدارة المدرسة تحميل انتحار الولد للمدرس الذي يريد التغيير، ضغطوا على الطلبة الذين حوله وهددوهم بالطرد، ضعف أحدهم وأفشى كل شيء عن المجموعة التي كانت تلتقي وتقول شعرا حرا، تم الضغط نفسيا وعاطفيا على كل طالب أمام أبيه وأمه، رضخ الطلبة تحت ضغط الابتزاز العاطفي والمادي، ثم وقعوا على مذكرة إدانة للمدرس، إلا تلميذ واحد رفض التنازل عن مبادئة ودفع الثمن حين طردوه، وهكذا يندر النبل والقوة، ولا تخلوا الدنيا من الأحرار.

في المشهد الأخير والعظيم، بينما المدرس يغادر الفصل والمدرسة مطرودا؛ ينادِي أحد التلاميذ عليه ويعتذر؛ فيقبل المدرس اعتذاره ويهدئه ثم يهم بالمغادرة، فيقوم الولد بالوقوف على المكتب في مبادرة منه؛ ليقول له: "نعم أنت رحلت ولكن سنتمسك بمنهجك وسننظر من جميع الزوايا"، نظر بقية التلاميذ إلى هذا التحرك، فصعدوا على مكاتبهم في تتابع بعد أن تغلب كل منهم على ضَعفه وحيرته، حتى الولد الذي أفشى السر، استرد قوته وصعد، وانتهى المشهد وكل تلميذ واقف على مكتبه والمدرس المدير يمنعهم ولكن لا يقدر عليهم، وكان ختام الفيلم من أروع ما رأيت.

يؤكد الفيلم الأمريكي مجتمع الشعراء الموتى Dead Poets Society على حقائق هامة:

- مهما كان الظلام حالكا فيكفي شـــمعة واحـــدة لتزيله.. وكان المدرس هو الشمعة.
- يكفـــي أن يبادر واحد بالتحدي فيتشـــجع بقية النبلاء.. ولكن المصيبة أن يصمت الكل.
- الباطل ضعيف جدا مهما كان طاغيا في بَطْشه.
- الشـــباب هم الأمل دائما ولكن لا يســـتغنى أحـــد عن الحكمة المتوارثة من الشيوخ.

الدجالون

بعث الله الرسل إلى الناس برسالة التوحيد والإصلاح، وعبر التاريخ لم يحافظ الإنسان على الرسالة الصافية طويلا، بمجرد وفاة الرسول يبدأ الانحراف، تَنبت للرسالة حواشي، وتتمدد طقوس وتترسخ أساطير وعادات تُلصَق بالمقدس، ويتحول الصراط المستقيم إلى مسارات متعددة مثل بيت جُحا، وتنتشر دكاكين الأديان، ويصبح مدار حياة الناس حول الحَسَد والسِحْر ومَس الجِن، ويُدَّعَى لشخصيات كرامات تَرفعهم عن البشر، وتتقدم قضايا صغيرة وتتأخر قضايا جليلة وخطيرة، فيحيا الناس بأفكار كارثية وينزلقوا بها إلى مآسي لم تكن تخطر بالبال.

في عام 1692م، كان سكان المستعمرات الشمالية الأمريكية من المتطهرين الذين هاجروا من أوربا لتأسيس المدينة المسيحية الفاضلة، وفي مدينة "سالم" كان لقسيس الكنيسة فتاتان، وفي يوم انتابتهن نوبات صراخ وتكسير للأشياء، قال الطبيب: "إنَّ بهنَّ سحر"، انتشر الخبر بالمدينة وسرعان ما ظهرت نفس الأعراض على كثير من البنات بالمدينة، وأصبح كل ولي أمر يَتَّهم من يكرهه بعمل السحر لابنته، سرت الهستيريا بالمدينة، وتم استدعاء المتهمين ومحاكمتهم علنا، وسُجنت طفلة عمرها أربع سنوات بتهمة السحر لمدة تسعة

أشهر، واندمجت بنت تُدعى"إليزابيث" في نوبات أمام المحكمة ونثرت اتهاماتها حتى أنها تسببت وحدها في إعدام ثلاثة عشر متهم من العشرين الذين أُعْدِموا بتهمة السحر، بعد نهاية المأساة، انتاب المستعمرات الشمالية كلها رفض لما حدث واعتبروا الضحايا أبرياء، ولكن بعد فوات الأوان.

وبعد ثمانين عام، عقب حرب الاستقلال وعند كتابة دستور أمريكا، كانت هذه الحادثة السبب في كتابة نص يمنع قيام الدولة على أساس ديني.

هذه القصة مثال من أمثلة عديدة لنفسية وتفكير أوربا في العصور الوسطى، وتجعلنا نتساءل، كيف ينجرف الدين الإلهي إلى معتقدات تؤمن بالشياطين والسحر؟

* * *

يروي المفكر والأديب السعودي "مرزوق بن تنباك" قصة حدثت من ثلاثين عاما، وذكر فيها أسماء كل الشخصيات بالوثائق، حيث حَكَمَ قاضي يؤمن بتلبس الجن، على شخص ضعيف كفيف "ذكر اسمه" بتهمة السحر، وقام القاضي بسماع شهادة اثني عشر جنِّيا وسجل أسماءهـم حضوريا بِسِجل المحكمة الشرعية، وتوجه حرسٌ بناء على شهادتهم إلى منزل المتَّهم ووجدوا الدليل، وأعدم

المتهم، ذكر المفكر أنه تقدم بشكوى للأمير نايف بوزارة الداخلية.

رغم ندرة مثل هذه الحوادث إلا أنها حدثت أمام القاضي والموظفين والشرطة، ومع ذلك ونظرا لسيطرة فكرة الجن والسحر عليهم، لم يوقف أحد هذه الجريمة.

هذه القصة نموذج آخر لسيطرة الوهم على عقول المسلمين وربطه بالدين.

* * *

في أيام شبابي قادني الشغف بالروحانيات إلى كتب الصوفية، مثل "الفتح الرباني والمِنن الكبرى"، وفيها أخبار عن الخوارِق والكرامات لشيوخهم، وأثناء القراءة وأنا مستمتع بهذا الذي يمشي على الماء وينتقل بين البلاد في غمضة عين، قرأت قصة عن الشيخ حين همَّ بالوضوء بالمسجد، فأحْجَمَ مشمئِزًّا في حركة عنيفة ثم قال: "ما هذه النجاسة!، يأتي أحدكم ليتوضآ ويرمي بأوساخه هنا"، قيل له: "ماذا جرى يا شيخ! "، فقال: "هناك شخص توضأ بعد أن قام بعمل الفاحشة مع عبده"، ادَّعي القطب الصوفي أنه يرى بعين بصيرته ماء الوضوء بألوان المعاصي، وأن للذنوب ألوان بحسب خطورتها ونوعها، وهنا فقط استيقظت من قصة ألف ليلة وليلة التي تتحدث عن الكرامات لأنتبه إلى مصيبة، تساءلت: "هل يفضح الله عباده،

فيهتك ستر المذنبين؟" "إن الله ستر المنافقين ولم يفضحهم للناس"

ثم انتبهت لهذا الشطح، ولم أعد أؤمن بمن يدَّعي أنه يعرف غيبا، أو أنَّ العين تفلق الحجر، ولا بالأعمال السفلية والسحرية التي تؤثر في أجساد وإرادة الناس، فالله لا يُسلم بشر لبشر دون أسباب ظاهرية ولا يسمح بخرق القوانين.

* * *

في إحدى القرى بمصر، قبل ثورة 1952م، تزوج رجل بامرأة ثم عجز عن الاتصال الجنسي بها، وكتم الزوجان الأمر لسنوات طويلة، وفي يوم كان الزوج جالسا في أحد الأفراح، حيث يدور الحشيش بين الناس، وحينها يفقد الناس صوابهم وينجرفون في الكلام، فسمع بجواره رجلا يخاطب صاحبه قائلا:

"لا تستهن بي فأنا أقدر أن أسخطك قردا"، فضحك زميله، فرفع الرجل الغاضب صوته دون أن يدري وقال له: "هل ترى هذا الرجل خلفك، لقد عملت له سحر ألا يقرب زوجته أبدا".. سمع الرجل الكلام ثم غادر وعاد بعد لحظات ثم أطلق النار عليه وقتله، وفي المحكمة حكم القاضي الشرعي حُكما مخففا مع وقف التنفيذ، وقال في مبررات الحكم: "إن المجني عليه قد سبقه بقتله معنويا مما دفعه للقصاص منه بقتله ماديا".

وبالتفكير في الحادثة نفهم أنَّ التفكير الخرافي كان سائدا، ولم يكن الطب بمثل تقدم اليوم، فاليوم نستطيع بعرض الرجل على بعض الأشعة والتحليلات، أن نعرف أسباب العجز الجنسي وإمكانية علاجه.

* * *

يروي الدكتور "جاسم سلطان": "حين كان يَدرس الطب النفسي بأمريكا، وفي نوبة ليلية بالمستشفى حيث يتدرب هو وزملائه الشرقيين، عُرضت عليهم حالة مطابقة لحالات تلبس الجن الشهيرة عند العرب، وأخذ المريض يتكلم بصوت مختلف ويقول كلمات وكأنه شخص أخر، كتب الأطباء الشباب في دفترهم أنها حالة تلبس بالجن، وجاء أستاذهم في الصباح وعاين الحالة وقرأ تقريرهم وابتسم، ثم فتح عدة مراجع علمية تشرح تلك الحالة على أنها مرض نفسي معروف يدفع المريض للتكلم بهذه الطريقة، وأخذ يشرح لهم المرض وطريقة العلاج".

وهنا يتضح الفرق بين شعوب تُخْضع الظواهر للاختبار العلمي لتفهمها وبين أخرى تستسلم لأفكار خرافية.

* * *

بعد أن حضرت حفل زفاف إبنة صديقي، ذهب صديقي إلى الطبيب يشتكي أعراض بسيطة، وبالمسح التليفزيوني اكتشف ورما

كبيرالحجم يحيط بالكلى، وخاض تجربة قاسية وأزال هذا الورم بعملية ناجحة، وسعدنا جميعا حين علمنا أنه ورم حميد، وبعد مرور الأزمة قال لي: "ما حدث يرجع إلى الحسد، لقد تولى ابني وظيفة وتزوجت ابنتي، فحسدني الناس"، فنظرت إليه في دهشة ثم سألته: "تزوجت ابنتك من شهر، والولد توظف من ثلاث شهور، بينما الورم الذي أزلته تشكل خلال سنوات!، ولو نظرت من زاوية أخرى ستجد أنك سعيد الحظ، لأنك أكتشفت الورم مبكرا قبل أن يصبح خبيثا".

❋ ❋ ❋

يسارع الإنسان الضعيف إلى الهروب من استحقاقات الواقع فيقع في تلك الفِخاخ الغيبية، ولهذا اشتهر من ينسب الفشل في "الحياة. الزواج. العلاقات. الإنجاب. الرزق" إلى مس الجن أو السحر أو الحسد، ولهذا نرى تمزق العلاقات وتباعد الناس في بلادنا بسبب ظنون الحسد، وخاصة أن أغلب الناس على اختلاف ثقافتهم يؤمنون بقوة مادية للعين والسحر، بل إنَّ محاربة هذا الاعتقاد يعتبر مغامرة كبرى ويصعب نجاحها، لأنها معتقدات مجدولة مع الدين، وللنفس حظ فيها، فإلقاء اللوم على الغيب يعفي النفس من استفزاز الإرادة للمقاومة.

❋ ❋ ❋

نحن نعبر عن اعتراضنا على القدر بنسبته إلى فعل بشري، وهو الحسد، ثم ندعي أننا مؤمنون بالقدر، ونكرر الحجة الشهيرة "الحسد مذكور في القرآن"، ولم نتأنى في تفسير الحسد قرآنيا، ونتناسى أن الجملة الشهيرة "العين فلقت الحجر" لم تذكر في القرآن.

قال الدكتور صلاح الراشد ناقدا هذه الخرافة الشعبية: "أصبحت الأمة تؤمن بالشياطين بدلا من إيمانها بالملائكة"

الفكرة الدينية لا بد أن تظل صلبة، لا تنكمش ولا تتمدد ولا تُثقب أو تُجَوَّف. ولا بد أن تكون عارية، بلا لباس ولا زينة ولا حواشي ولا أطراف ولا جيوب سرية، فكرة صلبة تتميز وتستقل وتتعالى على ما يضاف إليها، ولكن من يصهر الفكرة الدينية مع ما يضاف لها من حواشي وبهارات ومشهيات وأساطير، يشوهها ويضيعها ويحولها من فكرة خيرٍ محض، إلى خلطة خير بالشر، فتكون بلوى على معتنقيها، وعلى من يقع تحت سُلطتها.

حقيبة الساذج

تكررت قصة الإنسان الذي تَدُسُّ العصابة في حقيبة سفره ممنوعات مثل جواهر أو مخدرات، فيضبطه مفتش الجُمرك ثم يَتَّهمه بالتهريب ويُزَجّ به في السجن لسنوات طويلة، ثم يخرج ولا يعرف سر ما حدث له.

وفي يوم يأتيه رسول معه مال من العصابة التي ورَّطته في الجريمة، يُخبره "أنَّ المخدرات التي حُبِس بسببها ما كانت إلا وسيلة لإلهاء المفتشين عن حقيبة المسافر الذي خلفه مباشرة، والتي تحتوي على كمية مخدرات هائلة تم تهريبها أثناء انشغال المفتشين بإدانته، فمرَّ الكَنْز بسهولة ودون اهتمام وتدقيق، الأمر أشبه باصطياد حوت ضخم بواسطة طُعم من سمكة صغيرة، وكان هو السمكة الصغير".

وسرقوا الصندوق يا محمد لكن مفتاحه معايا.

* * *

كان من مبادئ ثورة 1952، إقامة حياة ديمقراطية سليمة، حدث صراع بين الشباب المزهو بالنجاح السهل، فعزلوا "محمد نجيب" والمطالبين بالديمقراطية، ثم قال المنتصر: "هناك إسرائيل على حدودنا ولهذا لا نملك رفاهية للديمقراطية، لنحرر فلسطين أولا"

ثم سقطت القدس لتصبح العصفورة أكبر وأدهش وأوجع، فانغمسنا في دوامة "لا صوت يعلوا فوق صوت المعركة"، ثم هبطنا أعمق في دوامة "لا صوت يعلوا فوق صوت توفير لقمة الخبز"، ثم سكنا أخيرا في كهف صمت الذهول والخوف.

ومازلنا منتظرين تحرير فلسطين والقدس، نفقد ونفقد، حتى لم يتبق شيء نفقده، خلعنا كل شيء وسُلبنا كل شيء، حتى أجسامنا العارية لا نستطيع بيعها، فهي قبيحة ومثيرة للشفقة.

لم نتعلم درس عادل إمام في مسرحية مدرسة المشاغبين، "كل واحد ياخد باله من لغْلوغه"، في خِضَم انشغالنا الخَطَابي؛ ضُرب حولنا سور وراء سور، كما قال "عادل إمام":"واحنا قاعدين"

ولا يتبقى لنا أمل إلا بتعلم الدرس، ونقرر أن لا بد أن تَغْرس وتُمارِس الأسرة الحرية في أبنائها أولا.. لا بد أن يَزْرَع ويمارِس المجتمع الحرية في أفراده أولا.. لا بد أن يَزرَع ويمارس الحكم الحرية في الشعب أولا.. لا بد أن نعيد تعريف الحرية الملتبس على الناس.. وبعدها نكون قادرين على حل قضية فلسطين.

* * *

في فيلم "سوق" ظاهرة نفسية خطيرة وفكرة شجاعة؛ فالضحية الذي تورَّط ظلما في سجن طويل؛ أدمَن كل سيئات حياة السجن وعذابه وإهاناته، أدمن الذل والحرمان والخضوع.

وحين توفرت له الحياة الحقيقية برفاهيتها ووسائلها الكاملة، لم يستطع التمتع بها أو تذوقها، أصبح دمه وطبعه ومزاجه ذليلا، مهما تبدل حاله فلن يرضى بديلا عن نفسية وحياة العبيد، جمدت حواسه على تلك المتع المشَوَّهة ولن ترقى أبدا لما فوقها.

كثير من مجتمعنا لا يختلف عن هذا الضحية، فالرحلة الطويلة التي قطعها بين أسوارها مرغما أحدثت به نفس الأثر، يخاف التغيير ولا يتخيل تذوقه، ولا يتخيل أن يتحمل نتائجه، يخاف الحرية فيتحجج بأنها ستؤدي للعُري والتفلت والفوضى، يخاف المسؤولية ويلقيها على السلطة ثم يتأرجح بين حمْد السلطة ولعنها، يخاف الموت كما يخاف الحياة، يخاف الظلم ولا يعي أنه يسبح فيه ويغمره.

عندما يقوم الإنسان بحمية غذائية يتعب في أول الأمر، وتصرخ معدته وتتشنج وتُشعره بفراغ عميق بداخلها، ثم تنكمش وتصبح غير قابلة إلا لأقل الطعام، ثم يناله لذة من فراغها. نحن وصلنا لمرحلة التلذذ بالعذاب والإهانة والعجز، وكلما قام أحدنا بالصراخ ليوقظنا صفعناه على قفاه وأرجعناه بجوارنا خوفا من الإفاقة واليقظة المُرَّة. ولا حل إلا بفهم الحيلة وبدء رحلة الحرية والكرامة والمعرفة.

مثلما انغمس السجين في متع شاذة ومهينة ووضيعة وأدمنها، نحن منغمسون ومدمنون بضاعة سوق المتعة، مسجونون أمام الشاشة التي وفرت متع بصرية وعالم خيالي يُرَى ولا يُلمَس، ولكنه لذيذ

وبالألوان الطبيعية، "الأفلام - المباريات - الألعاب - البرامج الترفيهية - القضايا الخلافية" .... هذه هي بضاعة سوق المتعة، المتعة الرخيصة، فلا يتبقى مكان للمتعة الراقية، أصبحت القراءة والفكر والحكمة والعلم من المستحيلات، مثل العنقاء والخِل الوفي، كما أنَّ السجين لم يستطع ممارسة المتعة الراقية الآدمية، بعد توفر القدرة المالية والحرية، وحنَّ إلى المتعة الوضيعة، كذلك نحن مازلنا قابعين في المتع القليلة والوضيعة، المتع البصرية، ونترك خيالنا ليُلعب به وأدمغتنا تغسل وتكوى وتنقش بكل رديء، وأصبح الكتاب ثقيل وبعيد ومستهان به، والبلد التي بلا نخبة لا بد يأسرها سوق المتعة.

ما فعلته العصابة براكب الطائرة الغافل هو نفسه ما فعلته السلطات بالشعوب، كلاهما أفسد الفطرة، وجعلها منحطة، ولا حل سوى بداية، بداية تدخل الفرد مَشْفَى يسترد فيها نفسه القديمة، والبداية لا تأتي إلا بنُخْبة.

مثال نادر

يؤثر عن "عمر بن الخطاب"، قيامه بمقاسمة كثير من عماله (الولاة على البلاد) أموالهم وضمَّها لبيت مال المسلمين، وأنَّه لم يستمع لقولهم: "إنَّ هذه الأموال نَمَت وتضخمت من التجارة"، ومن هؤلاء الولاة: "سعد بن أبي وقاص بالعراق - عمرو بن العاص بمصر - أبو هريرة بالبحرين".

في كتاب "العقد الفريد" حوار بين "عمر بن الخطاب" و "سعد بن أبي وقاص"، ومن المعروف أنَّ "سعد" كان مستجاب الدعوة، لقول النبي ﷺ: "أتقوا دعوة سعد"، فلما شاطره "عمر بن الخطاب" ماله، قال له "سعد":

لقد هَمَمْت.

قال له عمر:

بأن تدعو عليَّ؟

قال: نعم.

قال: إذا لا تجدني بدعاء ربي شقيا.

لم يكن "عمر" نُصوصيا، فرغم علمه بأنَّ "سعد" مستجاب الدعوة، قاسمه ماله بصلاحياته كأمير للمؤمنين، ولم يرتعش أمام الهيبة من دعوة "سعد"، فمن يتولى أمر المسلمين يجب أن يتفرغ لهم فلا يتاجر، فالتجارة تشغله عن وظيفته ويتخللها شُبْهة حرام بسبب نفوذه في الناس.

كان لعمر عيون في كل مكان ليبلغوه بسلوك الأمراء، فبلغه أنَّ "خالد ابن الوليد" يمنح الشعراء مالا وفيرا، وكان قد أجاز "الأشعث" بعشرة آلاف، فأرسل عمر إليه "بلال ابن رباح" الذي أهانه بنزع عمامته وتقييده واستجوبه أمام الناس، فأجاب "خالد" بأن هذا المال الذي أجازه من ماله الخاص، وكان رأي "عمر" أنَّه، إنْ كان من غير ماله فهي خيانة، وإن كان من ماله فهو إسراف، وكما لم يغرَّه دعوة "سعد"، لم يغرَّه أيضا لقب "خالد"، سيف الله المسلول، وقام بعزله.

في هذا المشهد يتجسد الأسلوب العمري في مقاومة بدايات تسرب روح المُلك العضوض الذي كان سائدا في العالم، كان "عمر" يراقب الولاة ويمنعهم من الإسراف ومن التصرف كملوك.

* * *

يُروى أن "عمر" كان جالسا ومعه زعيم بني ربيعة، وكان مقربا له، فقال أحد الجالسين بصوت مسموع: هذا سيد بني ربيعة، فسمعها "عمر" والحاضرون، فأخذ "عمر" الدُرَّة وضرب بها على رأس سيد بني ربيعة، فقال له: "مالي ومالك يا أمير المؤمنين!"

فقال"عمر":"مالي ومالك! أما سمعتها؟"، قال: "نعم سمعتها، فمه!"، قال "عمر":"خشيت أن ينال قلبك منها شيئا فأردت أن أطأطأ من نفسك".

هذه القصة قرأتها منذ سنوات كثيرة ولم تغادر ذاكرتي، كنت أتعجب من هذا الخليفة الذي يصل به الأمر لحراسة وساوس نفوس القادة،

حيث خاف أن يغتر الرجل بكلمة من الكلمات الجاهلية التي طهرهم منها الإسلام.

فلم يعد هناك سيد للعرب... هناك الإسلام وفقط.... هناك الله أكبر.

* * *

روى البخاري في صحيحه عن"ابن عمر" قال: لما فتح هذان المصران أتوا عمر فقالوا يا أمير المؤمنين: إن رسول الله حد لأهل نجد "قرناً" وهو جور عن طريقنا وإنا إن أردنا "قرناً" شق علينا قال: فانظروا حذوها من طريقكم فحد لهم "ذات عرق".

كانت مناسك الحج أو العمرة بالإحرام من أربعة أماكن وهي. ذو الحليفة "لأهل المدينة"، والجحفة "لأهل الشام"، وقرن المنازل "لأهل نجد"، ويلملم "لأهل اليمن"، ثم فتحت العراق، فكان الميقات من جهتهم بعيد جدا، فأمرهم "عمر" بأن يرسموا خطًّا يحازي "قرناً" فكان منطقة "ذات عرق" ، فجعلها الميقات الخامس.

في هذه القصة قام"عمر" باستخدام القياس لتحديد الميقات الذي طرأ نتيجة الفتوحات، الحج شعيرة كبرى، واجتهاده سوف يطبقه المسلمون إلى يوم القيامة، ومع ذلك لم يتردد أو يضيع وقتا في الجدال، وهذا من فقه "عمر" الذي تتلمذ على النبي ﷺ.

* * *

أتذكر هذه القصص العُمرية وأدْهش لسرعة انفكاك عرى الإسلام السريع بعده، وقد كان حارس كل الثغور وكان أسطورة الإسلام.

ويلح عليَّ تساؤل هام:

- هل عظَّم الفقه والحديث والتاريخ سُـنَّة "عمر" في السياسـة ومراقبة الولاة؟
- هـل عظَّم الفقه والحديث والتاريخ سُـنَّة "عمـر" في مواجهة انحراف الولاة سـواء في التعامل مع المال والتجارة أثناء الحكم أو في مواجهة الضعف البشري المصاحب للسلطة.
- لماذا لم يتكرر مثل "عمر" في تاريخ الإسلام إلا نادرا؟ وفي نفس الوقت تكرر رجال الملك العضوض طوال عصر الإسلام؟
- لماذا لم يتشـبع المخيال والفقه المسـلم بسـيرة "عمر" وطُهرها وحكمتها وقدوتها؟
- لماذا سرت سُنَّة الأمويين والعباسـيين؟ وشاع فقهم المتمثل في "وإن جلد ظهرك وأخذ مالك"

وأخيرا، هل مر الفقه خلال مصفاة الملك العضوض، فمنعت السياسة مرور سيرة وفقه "عمر"؟.

بلا سراديب

هناك نكتة شهيرة عن شاب يسكن العشوائيات، عُقْدَته هي معاناته اليومية مع الحمامات المشتركة، والوقوف كل صباح في الطابور ينتظر دوره، فيتورط يوميا في روتين الشِجَار على من يحق له الدخول أولا حتى يلحق مواعيد عمله.. ثم تتغير الظروف لسبب ما ويصبح ثريا، فيكون أول عمل له هو بناء فيلا كبيرة واسعة تتكون من عشرين حماما وغرفة واحدة!

هذا الرجل جاءته نِعمة، أخرجته من الفقر إلى الثراء، فغفل عن التفتيش في عقده التي منشأها حياة الفقر، فصحبها معه في حياة الثراء، فصارت حياته الثانية والثرية مُشَوَّهة بأثر من حياته الأولى، ولو اهتم بالشفاء أولا من تلك العقدة؛ لأدرك أنه يكفيه من الحمامات ما يكافئ عدد الغرف وسكَّانها، فلا يزحم منزله بالحمامات ويحرم نفسه من فائدة تنوع الغرف.

* * *

ورث سبَّاك مستشفى كبيرة، فأصبح رئيس مجلس إدارتها، ولكي يدمغ العهد الجديد ببصمته، كان يقضي كل وقته في رعاية مواسير المياه والصرف الصحي والتكييف وكل ما يخص السباكة والأنابيب،

ويهمل بقية التخصصات الأخرى، وبمرور الأيام ترتقي المستشفى في مجال السباكة وتتراجع في كل المجالات الأخرى التي كانت أكبر من استيعابه.

هذا نموذج آخر لشخص لا يعاني من عقدة شخصية ولكنه متخصص في مجال مختلف ويصر على أن يمرر كل المجالات من خلال تخصصه، وكما يقول المثل: "الذي لا يعرف إلا المطرقة يتعامل مع كل الناس على أنهم مسامير"

* * *

عندما يحدث انتقال للإنسان وخاصة إلى الأمام، عليه أن يحترس من الجمود عند الأفكار والأدوات القديمة، وأن يتكيف مع الجديد في توازن نفسي، على الإنسان أن يَدخل الدين من الباب الرئيسي، لأنه سيمر على جهاز كشف العُقَد ويخلعها قبل الدخول، فالذي يدخل من الباب يَصلَح ويُصْلِح، والذي يدخل من السرداب ومعه عقده، يَفْسَد ويُفْسِد.. وتكمن الخطورة في أن تلك العقد سوف تصبغ الدين وكل الحياة، فتتشوه المعالم ويصبح الكبير صغيرا والصغير كبيرا، وتتقدم التوافه وتتأخر المُهِمَّات، فيصبح مثل صاحب الحمامات ومثل مدير المستشفى السباك.

* * *

في تونس صراع قديم بين تيارين يساري وإسلامي، وهناك حركات قوية لتحرير المرأة، وقامت أمرأة منتمية لهذا التيار بإعلان أنها سوف تتزوج رجلان في نفس الوقت، وطمأنت الناس في الإعلان بأنها سوف تعدل بينهما، وسيكون اللقاء الزوجي بالتساوي، وأثار هذا الإعلان ضجة مستحقة.

في هذه القصة نموذج للعُقَد التي تقود الإنسان، فهذه المرأة تعترض على ما تراه ظلما للنساء، وترى أن تعدد الزوجات يؤذي المرأة، وكان المتوقع لصاحبة القضية الفكرية أن تحاول مقاومة ما تراه ظلما، ولكن لو وصل الأمر إلى مرحلة الكيد، كما مع هذه المرأة، فهذه لا شك عقدة نفسية وليست معركة فكرية.

* * *

الطفل الذي عاش في أسرة عصبية، يصرخ الأب أو الأم ليل نهار، يوبخوا ويلوموا ويهينوا، لا بد أن يستهلك عصبيا ونفسيا تماما، وسوف يكون غير صالح لتكوين أسرة أخرى، فلا بد من شفاءه أولا ثم يتزوج بلا عقدة.

الطفل الذي عاش في أسرة بخيلة، تهين نفسها من أجل المال،

* * *

في الدول المتقدمة، لا يشتغل المدرس بالتدريس في المدرسة أو الجامعة دون اختبار تربوي ونفسي دقيق، ويكون الاختبار العملي أهم من

الاختبار النظري، ومن يفشل في الاختبار يشتغل في تخصصه بأنشطة أخرى غير التدريس والتعامل مع الطلاب، لأن الخطأ في اختيار المدرس قد يتسبب في تشويه نفسية الطلاب والعملية التعليمية، وهذا مثال للحرص على أن يكون المدرس بلا عقدة يمارسها على التلاميذ، وهكذا على المؤسسات أن تفتش عن العقد ومركبات النقص وتقاومها أو تعزلها عن التعامل مع الجمهور، فيصبح مجتمعا بلا عقد وبلا ضحايا لأصحاب العقد.

ليدخل الإنسان إلى ما يريد من أبوابه الكبرى، وكما يمسح الإنسان قدمه على الدواسة أمام الباب؛ عليه أن ينفض عنه عقده كما ينفض الغبار عن جسده؛ فالعقد هي العدو الأكبر، فليفتش عنها وينزعها مبكرا، ولا يقحمها في حياته ولا علاقاته ولا عباداته.

علل نفسية

التدين طاقة تشتغل في حقل الصلاح والإصلاح المؤمن، ولو اشتغلت في غير ذلك فهي طاقة مقيدة ومهدرة، والتدين سهم يتجه إلى أهداف صالحة، ولكن كثيرا ما يطيش سهم تدين أغلب الناس، فينكمشوا في زاوية من التدين الصارخ في ظاهره والقليل في باطنه، يُذَكِّرني فقراء الإيمان والمتمسكون بمظهره لا جوهره، بشخص بدأ رحلة لسفر بعيد تتخللها محطات للاستراحة، وفي المحطات المبكرة تعلق بشخص أو مكان أو مناخ فقعد وأوهم نفسه بأنها محطة الوصول.

أثناء الحرب الباردة، قال "شاه إيران" حليف الغرب: "إن إيران مثل ترباس الباب الرئيسي، لو هاجمه مقتحم فحتما سوف ينكسر ويفتح الباب، ولكنه سوف يصمد وقتا يكفي ليقظة وتجهز من في البيت لمواجهة المقتحم، فجيش إيران هو ترباس أوربا حين يهاجمها الإتحاد السوفيتي".

حين اندلعت الثورة الإيرانية عام 1979م، وشاهدت الخميني يهبط في إيران على متن طائرة فرنسية ومعه صحفيون غربيون، وكنت مندهشا لتخلي الأمريكان عن حليفهم وترباسه، ثم جاءت الإجابة عبر سلسلة الحروب الطائفية التي اندلعت في العالم العربي،

وأدركت أن الغرب وحكام الشعوب، لا يزعجهم تدين الشعوب بقدر اهتمامهم بنوع التدين، حين يكون التدين بلا أساس وكأنه بناء على الرمال، لا تُقَاوَم الموجات الدينية وتمر بسلام، لأنهم يعرفون ثمرتها المُرَّة أو العَقيمة، ولكن حين يُبنى على أساس من الإيمان والعمل الصالح والسلام، يتم مقاومته واستئصاله مبكرا قبل أنْ ينمو وينتشر، وبهذا فعبر قرن كامل في الوطن العربي لم تمر موجة دينية دون اختبار وقصد ثم سماحية من العالم الغربي والحكومات المستبدة، فإن كانت الموجة تحمل تعصب وطائفية وسذاجة وميل للاستفراد بالساحة ونفي الآخر، يمررها الفخ الغربي، وإن كانت تحمل سلما وسلاما للآخر وتعاون على المشتركات، وُئِدَت مبكرا.

في كتاب خالد محمد خالد "قصتي مع الحياة"، يَحكي: "أنه في صباه، عام 1930 كان يصحبه أخوه الأكبر للصلاة في الأزهر، وكان أصدقاء أخيه من الجمعية الشرعية يعفون اللحية ويقصّون الشوارب ويتعمَّمون فوق "طاقية أو طربوش" بعمامة ينسدل منها "ذُؤَّابة" من الخلف، يقتدون بملابس الرسول ﷺ، وكانوا يتحدثون عن أهمية الطمأنينة السابغة في الصلاة وعدم نقرها نقر الغراب كما جاء في الحديث النبوي، ولهذا كانوا ينتظروا حتى يفرغ الإمام من صلاة الفرض، ثم يقومون للصلاة في جماعة خاصة، ربما تستغرق الفريضة نصف الساعة أو تزيد"

ذكرتني هذه القصة بما رأيته عام 2018 في "خميس مشيط" بالسعودية، حيث كان هناك مسجد شهير يصلى فيه باطمئنان بحيث تستغرق الصلاة ساعة وربما ساعات بحسب وقت الفرض، وبالتفكير في هذه القصص نستنتج بسهولة أن من يختار هذا النوع من التدين العبادي يستهلك معظم طاقة التدين في هذه الصلاة، ولا يتبقى إلا القليل من هذه الطاقة لتصب في المجتمع.

دفعني هذا التأمل إلى تجارب مررت بها في حياتي ما بين (1980 وحتى 2015) عاصرت فيها نماذج من التدين، هي قصص كانت كثيرة وقتها، وقد تكون أخف في حدتها اليوم، ولكني أرى في ذكرها فائدة.

في أول الشباب، كنا نصلي في المسجد ثم نخرج ونتبادل التحايا والكلام، يخرج شاب لا يعرفه بعضنا، ويسلم على صديقنا ويحادثه قليلا ثم ينصرف، وفي تلقائية نسأل صديقنا: "هو ده أخ؟"

هذا المصطلح وقتها يعني، هل هو إنسان عامي أم متدين، وهل يمتلك تلك الأفكار الدينية التي لدينا، فكونه يصلي بالمسجد لا يكفي، فالأصل ما يَحمل من أفكار دينية.

ومرت السنون، وظل يتكرر نفس المشهد والسؤال، ولكن مَدلولَهُ تعقد كثيرا، ربما كان ملتحيا ويلبس الجلباب، لكن أصبح سؤالا أكثر تخصصا وحصرا، فكلمة "أخ" لم تعد تعني متدين فقط.، بل

لا بد من مضاف إليه، "أخ سلفي - إخواني - تكفيري - تبليغ ... إلخ"، ومع ذلك كنَّا نظن أننا في خير حال ونمتلك وعيا يميزنا عن بقية الشعب، الذي لا يحمل لقب أخ".

كان الدين في السجون بقرار سياسي زمن "ناصر"، ومُنع عن الناس، ثم أخرج "السادات" الدين بقرار سياسي معاكس بغرض مطاردة اليساريين، وتناوله الشباب تناول الظمآن الشره، ولم تترك السياسة الشباب المتدين يتشرب الدين صافيا.

فعاش الشباب المتدين داخل قنوات دينية مفروضة عليه، دين معجون بماء السياسة وحلم السلطان الذي بكلمة واحدة يغير الحال، وسقط بغفلته وسذاجته في التصنيف، الذي أفرغوا فيه طاقة تدينهم.

كنت أعمل بالخليج، وكان لي خمسة زملاء مهندسين سلفيين، وحين أرادوا استدعاء زوجاتهم وأولادهم من مصر قاموا بحجز تذاكر طيران ذهاب وعودة في نفس اليوم، ليكونا في صحبة زوجاتهم في الطائرة، وهذا يتكلف مالا كثيرا، وحين سألت عن السبب، قالوا: "هناك فتوى بأن المرأة لا يجب أن تسافر دون محرم، لأنها قد تضعف نفسيتها وتستجيب للفتنة"، وحين حاججتهم: "بأنَّ الرحلة تستغرق ثلاث ساعات وسط الزحام بالطائرة، فكيف نخشى عليها الفتنة، بينما تحيا وحدها مع الأولاد في مصر لشهور وربما أعوام"، قالوا: "هذه فتوى من العلماء نقتدي بها".

هؤلاء الشباب تدينوا في محطة مبكرة، وحصروا تدينهم في منح عقولهم ودينهم لفتاوى الماضي، ولم يتمتعوا بهواء أفكار العصر، فأفرغوا طاقة دينهم في نشاط الطاعوية للعقل السلفي فقط.

وفي يوم عرَّفني صديقي برفيق له ثم قال له: "سجل اسمه في الدفتر يا شيخ فلان! "، ثم أعطاه اسمي!، فلما نال صديقي حظه من التمتع بنظرة الدهشة على وجهي، قال: "الشيخ يعمل بالحديث الذي يشيد بثواب من يدعو لأخيه بظهر الغيب، وعقب صلاة الفجر يتلو الاذكار؛ ثم يمسك بورقة بها عدد من الأصدقاء، ويدعو لهم بظهر الغيب، ويقوم بهذا يوميا عقب كل صلاة لمدة ساعات، لأنه يطمع أن تدعو له الملائكة وتقول له: (ولك مثل ذلك) ".

لم أستنكر وقتها هذا الحديث، فالرجل يريد ان ينال بالدعاء خيرا وبركة، وكان من المعتاد عندما نفترق، نتواصى بالدعاء، ربما يكون دعاء أخي لي؛ أبرك من دعائي لنفسي، ولكن، هذا الرجل أفرغ طاقته الدينية في هذا النشاط، واشتغل على نظرية، أحب الصالحين ولست منهم عسى أن أنال بهم شفاعة، هذه العبادة الصوفية محطة مبكرة أفرغ فيها طاقة إيمانه، ولا أدري هل بقي منها ما يَسكب صلاحا في المجتمع أم ملأ إناء تدينه بنشاط الدعاء.

+وللسجاد الجديد رائحة معروفة، ولكني شممت رائحة أخرى تزداد حدتها حين أسجد، وأتممت صلاتي ثم انصرفت، وعندما

دخلت البيت نبهتني زوجتي إلى بقع سوداء في البنطلون، ولم يكن إزالة تلك البقع سهلا، وبعد أيام أدركت ما حدث، فقد لاحظ صاحب المسجد أن السجاد الجديد به خطوط متقاطعة وقد يُظن أنها صلبان، وهذه الخطوط متكررة في جنبات السجاد، كانت الصبغة من النوع الذي يلتصق بالملابس، وتسبب هذا الاجتهاد في مشقة للناس، وحين أتأمل في هذه القصة أكتشف أن العقدة بداخله، فأغلب الأشكال تتكون من خطوط متقاطعة، ولو طارد شكل يشبه الصلبان لتوهمها في أغلب الأشكال فتصبح قصة بلا نهاية، ولو تتبعنا الديانات كلها بما يتخذونه من أشكال لما صفا لنا شكل هندسي، ولكن طاقة التدين عنده ضخمت فكرة مخالفة التشبه بالأديان الأخرى فكان ما كان.

هذه الأنماط من التدين لا تقتصر فقط على الدين الإسلامي، بل كل الأديان بكافة أنواعها، لأنها تتوقف على طبيعة الفرد وعقلية الإنسان، هناك الروحاني والنصوصي والعقلاني والمصلح.. إلخ، والذي يضبط هذه التدينات هو تصور"أن الإنسان خليفة الله في الأرض"، والخلافة تصب في صالح الناس والمكان، فما أحدث هذا الأثر فهو تدين على أساس، وما خلا من هذا الأثر فهو تدين على الرمال.

"أرواحنا في المساء"

عنوان فيلم أجبني صدر عام "2017"، يحكي عن رجل وأمرأة تجاوزا السبعين، جيران في حي منذ عشرات السنين، العلاقة بينهما سطحية ونادرا أنْ يجمعهما لقاء عام، لكل منهما حياته وقصته التي وصلت إلى الصفحة قبل الأخيرة، انعزل كل واحد منهما في بيته وحيدا، طرقت المرأة عليه الباب فاندهش لرؤيتها، جلست وصمتت قليلا ثم استجمعت شجاعتها وقالت: "أريد أنْ أعرض عليك أمرا، أنا مثلك أرملة وأحيا وحدي، وأعاني في المساء وخاصة حين أرقد وحدي للنوم، وأصارع الأرق باستمرار، أريدك أن تأتي إليَّ في المساء في بعض الأيام، وتنام بجواري في السرير، لا أريد جنسا، فقدت الرغبة فيه منذ خمسة عشر عام، فقط أريد من يتحدث معي وأنا مستلقية على السرير، أريد رجلا يتنفس بجواري، فربما أستطيع النوم بسلام، أنا لم أعرض هذا الأمر إلا عليك، لأننا جيران منذ أربعين عام وأعلم أنك شخصية متزنة"

بعد زوال أثر المفاجأة، قال: "سوف أفكر في الأمر".

"لا بد أن أنبه إلى أنَّه مجتمع أوربي وأمريكي، وليس مجتمعنا الشرقي"

قَبِل الرجل العرض، وأصبح لحياتهما طعم، وربما لو طال الوقت

لتزوجا، ولكن أدهشني أنَّ الخيال الأمريكي استسلم لضغوط الواقع، فأنهى الفيلم أنَّها تضطر أنْ تسكن مع إبنها الفاشل في زواجه، والذي ضغط عليها عاطفيا لترعى ابنه وتسكن معه في مدينة بعيدة، وختم المخرج الفيلم بمشهد العجوزين، يتحدثان تليفونيا في المساء لمحاولة للتغلب على الأرق.

سر إعجابي بهذا الفيلم هو التنبيه لحاجات بشرية بسيطة وبريئة ويصعب النطق بها، وأغلب هذه الحالات يحققها "الـزواج الشرعي"، وللناس حاجات كثيرة ولا تتطابق، ولكن يصعب أنْ يَفهم الإنسان نفسه، ويصعب أن يَفهمه الآخر، ويَصعب أن يَبوح بما يريد، فاختزال كل حاجات الإنسان في الجنس طغى على حاجات أخرى تُلح على الإنسان في قوة وصمت.

* * *

يتكرر في الأفلام الأمريكية مشهد "رجل أو أمرأة"، يُبتلى كل منهم بموقف تَخَلي "طلاق، خيانة زوجية، اختفاء أو رحيل الرفيق، وفاة ..إلخ"، فجأة يجد الإنسان نفسه أسير صدمة قاسية، يحترم الأقرباء ألمه، ويمر وقت قصير لا يتَعَدَّى أسابيع، ثم يسترد الإنسان نفسه، فيتهيأ نفسيا لتجربة وارتباط جديد، فيصبح مثل المنزل الذي رحل ساكنوه، فأصبح مهيأً لاستقبال ساكن جديد.

لا يتوقف الإنسان عن مواصلة الحياة وتعرضه لفُرَصِها والإصرار على نيل بقية حظه منها، فالإنسان الغربي لا تستغرقه مشاعر المأساة مدى الحياة، يُجرَح ويُعالَج ويُشْفى ثم يُجرح ويُعالَج ويُشفى ثانية وثالثة ورابعة، يتعامل مع تجارب الحياة بنفسية الرحلة متعددة المراحل.

الإنسان العربي يتعامل بنفسية "الحياة مثل عود الكبريت يشتعل مرة واحدة"، يهبط العربي إلى ملعب الحياة والزواج بلا تدريب ولا خبرة، وبحسب حظه المجهول، قد تستمر الحياة بتقلباتها وآلامها حتى يرحل، وقد يحدث فشل وفِراق، ولكن يعقب هذه التجربة اليتيمة مشاعر المأساة، لكل عربي في الحياة قصة واحدة لحياة واحدة، ولكل غربي في الحياة قصص داخل فرصة الحياة الواحدة.

* * *

للإنسان فك علوي وفك سفلي، شاءت الحكمة الإلهية أنْ يتحرك فقط الفك السفلي، ماذا لو انطبق الفكان على بعضهما ولم يتحرك كلاهما؟، الشرع هو الفك العلوي، وعُرف المجتمع هو الفلك السفلي، لهذا لا بد أن تكون استجابة المجتمع للمتغيرات الحياتية وفقا للشرع ومراعية لصالح المجتمع، وحين يتخشب العرف المجتمعي ويفقد مرونته، سوف يطحن الإنسان بين أنيابهما وضروسهما.

لا يمكن أن يقبل الدين بأنْ تُطَبق أحكامه في مجتمع مسدود، وهذا ما ألجأ عمر بن الخطاب أنْ يعطل حد السرقة في عام الرمادة، لكن ليست كل الأحكام ممكن تعطيلها، فالاعتداء على الأعراض لا يُعطل عقابه، هناك قصة مشهورة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قرر في نهايتها أنَّ المحارب لا يغيب عن أهله أكثر من أربعة أشهر، كي يرجع إلى زوجته، فالدين يضبط شهوات وحاجات الإنسان ولا يقهرها.

* * *

"وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ"

هذه الآية من سورة النور، هي دعوة لتيسير زواج الجميع سواء؛ "أحرار أو عبيد أو إماء" كما في التفسير وظاهر الآية.

وعدم الاستجابة لهذه الدعوة يؤدي لمعاناة وأمراض خطيرة بالمجتمع، ويؤدي لضغوط شديدة على ضمير وأخلاق الناس، وبمرور السنين تتزايد تلك الضغوط وقد يضعف الضمير وتنفلت الخيانات.

"تدعوا الآية للصبر عن الحاجة للزواج حتى يغنيهم الله من فضله"

السؤال الذي يرد بداهة هو:

هل قصدت الآية حالة الأقلية أم الأكثرية؟، بمعنى، لو أنَّ قرية بها مائة شاب ومائة فتاة وفي سن الزواج، هل يتوقع أن يكون ثلاث

أرباعهم قادرين على الزواج أم غير قادرين؟، الآية تدعوا أنْ يصبر الأكثرية أم الأقلية؟

هل تتحدث الآية وكأنَّ الأصل هو الاستطاعة أم عدم الاستطاعة؟.

الأصل في أي مجتمع أن يكون الزواج ميسر لأغلب الناس، والفقراء هم الأقلية وهم الذين حثت الآية المجتمعَ على مساعدتهم، لنفكر في هذا التساؤل ثم نلقي نظرة تأملية على مجتمعنا، لنعرف هل بِنيته طبيعية أم شاذة؟ هل القادر على الزواج ورعاية أسرة أكثرية أم أقلية؟

ماء الحياة يسقط على الأرض الخصبة فينبثق النبات، وماء الدين يجب أن يسقط على بشر يحيون حياة طبيعة يسيرة لتلبية حاجات الناس الضرورية، تهبط شرائع الدين على الإنسان بتكاليف تقوم بتنظيم النعم الإلهية، وحين يتطرف ويضل المجتمع فيطغى في توزيع تلك النعم، يصبح الزواج الحلال عسير على أغلب الشباب، هنا تصبح الحياة شاقة ويتعسر الحلال ويسهل الحرام.

* * *

في فيلم "امبراطورية ميم"، أرملة لديها عدد كبير من الأولاد والبنات، انجذبت مشاعرها إلى شخص مناسب ويحتل وظيفة تضطره إلى السفر كثيرا، تحتار بين دنياها ومسؤوليتها كأم وبين مشاعرها ورغبتها في الزواج من الذي آنَست إليه، وانتهى الفيلم

إلى الحبكة المصرية الشهيرة والتي تضطرها للتضحية والتخلي عن فكرة الزواج ويفترقا.

وهكذا نظل قابعين في ثنائية الأبيض والأسود، ومسجونين مع أفكارنا وتصوراتنا وعاداتنا في أطر مغلقة ثابتة، ونكون مثل من يتعامل مع الحوادث كأحذية ثابتة المقاس.

اليوم يوجد اختراع حديث للنظارات حيث يتم زيادة وتقليل مقاس النظر خلال مسمار زمبركي، فلا نحتاج لتغيير النظارة ويكفي إدارة المسمار لضبط النظر.

هذه النظارة المرنة تشبه أحلامي في مرونة مواجهة حوادث الحياة المختلفة متحررا من الأطر الثابتة بدون تصادم مع الشرع.

النادر أن يعثر الإنسان على من يستريح له ويناسبه في رفقة بقية الحياة.

وفي هذا الفيلم عثر كل منهما على الآخر في هذا العمر المتقدم، ولكن من عالج الفيلم سَجَنَ الشخوص والجمهور في فكرة زواج تقليدي يجمع الزوج والزوجة والأولاد في بيت واحد وتحت سقف واحد، وهذا بالفعل شبه مستحيل، وهنا ننتبه إلى الإطار الذي نسجن فيه أفكارنا عن الزواج، ففي القرآن الكريم الزواج هو علاقة شرعية مشهرة بين رجل وأمرأة، لم يضع الشرع خطوطا حديدية للتفاصيل،

وبهذا المفهوم ينال كل منهما برد الفؤاد وراحة الجسد وثمرة الحياة بسهولة، وخاصة حين يكون لكل من الرجل والمرأة حياة أخرى تشغلهما، فتفرغ الزوجة لأولادها لا يتعارض مع كونها زوجة وحبيبة لرجل أختاره قلبها، لم يفرض الشرع عليهما سكن مشترك أو حياة كاملة أو أي تفاصيل، ليتزوج الإثنان بالحلال ويختارا أي مسار لحياتهما بحيث لا يؤثر على المسؤولية تجاه الأولاد، فلا يكون وصال كامل ولا فراق كامل، الإطار المرن هو ما نحتاجه في طريقة تفكيرنا ومعالجة منطقنا بما يتوافق مع الشرع، ولكننا لا نفعل ولا يخطر ببالنا أن نفعل، فالزواج عندنا يعني، زوج وزوجة وشقة وعفش ومهر وشبكة وقايمة ومؤخر وفرح وسيشن ودباديب وإنجاب ومدارس وعشرات الأشياء الأخرى، والمجانين في شقاء وليس في نعيم.

* * *

هناك ضرورة لفك عُقَد إجراءات الزواج بحيث نَفْصل الديني عن المجتمعي، الزواج جوهرة موضوعة في علبة دينية أصيلة، العلبة موضوعة داخل سلسلة علب حديدية صدأة، يجب أن تكون سهولة الدخول في الزواج يتبعها سهولة الخروج منه، هذا هو الخير للجميع، الإنجاب يجب أن يكون وفقا للظروف وبعد التأكد من صلاح الحياة معا، اشترط الإسلام إيجاب وقبول وشهود، هذه هي الجوهرة الدينية.

يدهشني روايات كثيرة واقعية، لم أفهمها وليتني أجد من يشرحها لي، صعوبة زواج المطلقين أو الأرامل من الجنسين، العقبة المادية في هذا الزمان مشكلة حقيقية، هناك مطلقات وأرامل ومن لديهن أولاد، وعندما يُعرض عليهنَّ الزواج يطلبن طلبات غريبة، المدهش أني خَبِرت أحداثا تكون المرأة لديها شقتها ولها مال يكفيها ومع ذلك تتمسك بشرط الإنفاق والشبكة والشقة والمؤخر وبقية العلب الحديدية.

النبي ﷺ تزوج السيدة خديجة رضي الله عنها، التي أنفقت عليه مالها في الدعوة للإسلام، واشتغل في إدارة تجارتها، كان يشتغل عندها، ومع ذلك، هذه هي القصة الأم التي يتجاهلها الرجال والنساء.

يجب أن نفكر في فكرة، أنَّ من معه ينفق، ومن لديه شقة يجعلها لعش الزوجية، ومن لديه أولاد ويصعب فراقهم فليتزوج ويظل كل منهما في شقته ومع أولاده إلى أن يأتي الوقت المناسب للاجتماع الكامل، الأرملة والمطلقة يجب أن يكون لديهما العِصمة وهذا هو الأولى من الشبكة والإنفاق والشقة، العصمة تعني أنَّها حين تتعسر الحياة وخاصة بسبب الغدر أو بسبب الأولاد تطلق نفسها، كفانا النظرة الذكورية التي تمنع الرجل من قبول هذا الشرط، فالعصمة حرية له ولها ولا علاقة بينها وبين الرجولة المتضخمة.

يجب أن تتغير نظرتنا للمرأة سواء تزوجت مرة أو عشر مرات، فنحن لا نعبأ بالرجل وتاريخه بينما نحصي على المرأة كل تاريخها ونعتقد أنَّ

المرأة مادة استهلاكية، يجب أن يَهمنا المرأة التي تحضر أمامنا الآن، حتى لو طلقت عشر مرات فهذا لا يعني أنها المخطئة، النصيب حين يأتي يُخرج أروع ما في الإنسان، فربما طُلقت عشر مرات لأنها هي السعادة المكتوبة لك.

نحن نتأرجح بين نساء يتمسكن بأصنام إجراءات الزواج وضماناته، وبين رجال يقرأوا كتاب المرأة بحساسية حين يتقدمون للزواج منها، فيصنفوها بحسب عذريتها وتاريخها وأولادها، لابد من تيسير الارتباط وتيسير الانفصال وتغيير النظرة للمطلقة والأرملة، فييسر للرجل والمرأة الوصال وفق الشرع، وليتوقف المجتمع عن تطفله.

* * *

لماذا يكون الجَد أكثر عطفا وحلما وحكمة مع الأحفاد؟، على الرغم أنَّه نفسه حين كان أبا لم يكن بهذا العَطف والحِلم والحكمة، بل ربما في شبابه كان يلطم ويشتم ويوبِّخ أولاده بِنفاذ صبر.

لماذا عندما تتزوج فتاة رجلا يكبرها بسنوات كثيرة تراه أكثر حنانا وكرما في حبه؟، ولماذا الرجل/ المرأة الذي يسبق له الزواج يكون أكثر أدبا في المرة الثانية للزواج؟

قد تكون الإجابة أنَّ: " الزمن خير معلم، وطالما معظم الناس لا يقرأون فلا حل سوى التجارب" وأنّهَ " حين يفقد الإنسان فرص وأدوات وسنوات؛ ينظر لما تبقى بين يديه ويحرص عليه"

الجد أدرك في نهاية الحياة أنَّ الطفل والولد والبنت ليسوا ماكينات بأزرار ولهم كتالوج، الإنسان الذي يتزوج بعد مرور العمر يكون حريصا على نجاح الفرصة التي يظنها الأخيرة، ولهذا فالسعادة بين الرجل والمرأة تتناسب مع قدر الإحساس بجوهرة العلاقة بينهما، والنادر من يدرك تلك الجوهرة في زواجه البكر، فالغرور وتلقين الأهل والسذاجة والجهل والأنا حواجز تتراكم بين الزوجين.

* * *

لو تخيلنا مبنى كبير وبه مئات الغرف الواسعة والعالية السقف، وفي المبنى أثاث كثير وكبير ومتناثر في كل الغرف والصالونات، أغلب هذا الأثاث مناضد ودواليب ومقاعد صالون وأجهزة كهربائية وتُحف وقليل من الأسِرَّة، موزعون في ترتيب بديع أشبه بالمتحف، هو بالفعل يصلح متحف، ولكن المتحف لا يَصلح ولا يكفي للنوم؟

هل سكان هذا المبنى سعداء؟ مستريحين؟ هانئين؟ منبسطين؟، ألا يواجهون مشكلة لا يستغنى عنها إنسان وهي الخلود إلى النوم والسكون؟.

هذه هي لوحة من وجهة نظري تمثل حياة شبابنا في النصف قرن الأخير، وعلى الشباب أن يدركوا أنهم لا يحتاجون متحف، بل عليهم إخراج كل ما هو زائد وإعادة ترتيب كل شيء بالمبنى، ولا ينسوا أهم شيء "بيت هادئ وبسيط يجمع زوجين".

لماذا أقول هذا الكلام؟، كل الإحصاءات العالمية المؤثقة تتفق على حقيقة مؤكدة بالأرقام، عدد الذكور والإناث في كوكب الأرض متعادل، بل ويزيد عدد الذكور قليلا على عدد الإناث، فلماذا الرجال من المريخ والنساء من الزهرة؟، ولماذا يتحدث الرجال عن النساء ويتحدث النساء عن الرجال وكأنهم، يتحدثون عن شيء نادر .. قليل .. لا يناله سوى المحظوظون؟، كيف الواقع أنَّ أوفر من في الأرض الرجال والنساء؟، وكيف أنَّ الشعور العام أنَّ أندر من في الأرض الرجال والنساء؟

ألسنا مجانين؟

الحكمة والإخلاص

عندما نتذكر صورة الأفارقة في الماضي، كان الرجل عاريا ولا يرتدي سوى قطعة صغيرة تغطي العَوْرَة، كذلك كان سكان ماليزيا الأصليين "الملايو" حتى 1960، يُكَوِّن "الملايو" 60 ٪ من سكان ماليزيا، والصينيون 22 ٪، الهنود 6 ٪، بالإضافة إلى أعراق أخرى، وهذا التنوع هو سبب المعضلة الماليزية وفي نفس الوقت سبب نهضتها.

طمع الاحتلال البريطاني في المواد الخام وخاصة المطاط بماليزيا، "الملايو" مزارعون، فيهم طبائع تشبه القبائل الإفريقية، مستقرون في مزارعهم فلا يخطر ببالهم تغيير، وترفعوا عن صناعة المطاط لأنَّها تنتج انبعاثات وروائح يعتبرها المسلمون نَجَاسة، فاستقدم الإنجليز عمال "صينيين"، وهم المشتغلون بصناعة المطاط والذين يملكون ويديرون تلك الشركات، وعمال "هنود" يمارسون المهن الحِرَفية، وأدى ذلك إلى أنْ أصبح السكان الأصليون هم "المتخلفون والأميون والفقراء".

غادر الاستعمار ماليزيا، وترك في وثيقة مغادرته "اعتبار الجميع مواطنين ماليزيين"، هذه حالة فريدة في التاريخ، ففي الوطن العربي

هناك طوائف وعِرقيات، لكنهم السكان الأصليون منذ قرون طويلة، لهم نفس اللغة والأصل والعادات والمفاهيم والتاريخ، بينما في ماليزيا، ثلث السكان ينتمون لغةً وعرقا ودينا إلى بلدهم الأولى، ويصرّون على أنْ يظلوا في ماليزيا صينيين وهنود كاملين.

لنتخيل بلدا ضعيفا متخلفا وفيه أقلية تنتمي لدولتين من الدول الكبرى، الهند والصين، من المتوقع أن تكون تلك الأقليات نقطة ضعف وثغرة تُمَكِّن تلك الدول من التدخل في شؤون ماليزيا، ولكن هذا لم يحدث أبدا، ويرجع الفضل إلى "مهاتير محمد" وإلى جرعة المواطنة التي حَصَّنتهم ضد الطائفية.

* * *

في عام "1970" أصدر "مهاتير محمد" كتاب "المعضلة الماليزية"، كَتَب فيه: "الشعب الملايو كسلان، لا فائدة منه ومتخلف"، وذكر الأسباب وطرق العلاج، وأرجع التخلف لأربعة أسباب؛ الأول: "الوراثة والبيئة"، فتزاوجهم من داخل عِرقيَّتهم، لا يُجَدد الجينات، والبيئة الاستوائية الحارة تُورث صاحبها الكسل. الثاني: "العوامل الثقافية"، الثالث: "الفهم الخاطئ للإسلام، والاعتقاد بأنَّ الإسلام دين عبادة وروحانيات وليس عمل"، الرابع: "انعدام علاقات التعامل بين الأعراق كلها"، كل عرقية انكفأت على نفسها.

كان الكتاب إهانة للحكومة والشعب، فالحقيقة دوما كذلك، وطُرِد "مهاتير" من الجامعة ومن الحزب الحاكم وصُودر كتابه.

* * *

تولى "مهاتير" رئاسة حكومة ماليزيا عام "1970"، أول رئيس غير أرستقراطي، فالأب هندي والأم مالاوية، يقول: "ما من مرة ارتكبت فيها غلطة أو أصدرت قرارا غير شعبي، إلا وصفوني بالملاوي الأبله، بينما حين أتخذ قرارا صائبا أو يرضون عنه، يصفوني بالهندي الذكي"

اتخذ "مهاتير" خمس استراتيجيات رئيسية، ووضع خطة حتى عام "2020" لمدة تزيد عن ثلاثين عاما، وظلت ماليزيا تطبقها حتى بعد رحيله عن الحكم.

* * *

الاستراتيجية الأولى "التمييز الإيجابي"

اجتمع "مهاتير" بالنخبة الصينية والهندية، قال لهم: أنتم أقلية متعلمة وثرية، والسكان الأصليون، يعانون "جهل وتخلف وفقر" وأنتم عندكم المال والشركات وكل أسباب الرفاهية، لو ساويت بينكم لظلمت الأغلبية، المطلوب منى العدل وليس المساواة، بالعدل تقل الفجوة بينكم، وتنخفض المشاحنات والأحقاد،

شركاتكم ومصانعكم تحتاج عِمالة مدرَّبة ومؤهلة، لا بد من تدريب أبناء البلد ليعملوا في مؤسساتكم، سأكرِّس ميزانية التعليم كلها لهم، وسأرسلهم في بِعثات بالخارج، سأعمِّم التدريب المهني وأقوِّي ثقافة الصناعة وأغرس في التعليم ثقافة المواطنة.

وإلى اليوم أكبر الجامعات في ماليزيا لا يدخلها إلا الملايو فقط، ولا يعترض أحد، والنتيجة أنَّ الطبقة المتوسطة أصبحت هي الأكبر، و أساس الاستقرار للبلاد

* * *

عندما أرادت ماليزيا الاقتداء بالدول المتقدمة، أرسلت بعثتين إلى مصر والعراق، دولتان عربيتان وإسلاميتان، فوجدوا أنَّهما بلا "ديمقراطية وتقدم وعلم"، ثم أرسلوا بعثات لأوروبا، فوجدوا أنَّ الثقافة الأوربية مختلفة عنهم، فتوجهوا إلى الشرق.

الإستراتيجية الثانية "الاتجاه نحو الشرق"

أطلق مهاتير مقولته الشهيرة: "إذا اردت أن أصلي فسأتجه إلى مكة، وإذا أردت المعرفة سأتجه إلى اليابان، لأننا ننتمي إليهم اجتماعيا وعرقيا وفكرا"

فأرسل البعثات إلى الشرق وخاصة اليابان، وحرص على نقل العلوم ومعها شيء هام، سمَّاه "أخلاق العمل"، فالعمل مقدس

عند اليابانيين، ولاحظ أنَّ العامل الماليزي حين يتدرب لمدة أشهر في اليابان، يعود بأخلاق العمل التي يتميز بها اليابانيون، ويكون مختلفا عن أقرانه الذين لم يتدربوا باليابان.

* * *

الاستراتيجية الثالثة "الاتجاه نحو الصناعة"

تشتهر ماليزيا بكثير من المواد الخام، المطاط والخشب وزيت النخيل.. إلخ، قام بإصدار قانون يشجع تصنيع المواد الخام قبل تصديرها، فرض ضريبة على المواد الخام المصدرة بدون تصنيع، فكان تصنيعها أرخص للمستثمر، فأصبحت غالبية المواد الخام تُصَدَّر مصنّعة ولو بدرجة أولية.

استدعى الشركات اليابانية وأعفاهم من الضرائب، وأعطاهم مزايا كبرى، بدأ بالأجهزة الإلكترونية، وبدأ بالتجميع، ثم دارت العجلة، نبتت ثقافة الصناعة الماليزية في البلاد، استقلت ماليزيا بصناعات خاصة بها، منها السيارة الماليزية.

* * *

الإستراتيجية الرابعة "الاستثمار الأجنبي"

قدم تسهيلات هائلة للاستثمار، شرط أن يكون في الأصول، بمعنى، ألا يضع أحدهم المال في البورصة ثم يفر، الاستثمار في أصول مثل

"الأراضي والماكينات والمباني ... الخ"، من ينسحب يجد صعوبة، لأنه كي ينسحب عليه أنْ يبيع الأصل، الذي هو عقار أو آلات أو بضائع، بهذا جعل الخارج مرتهن للداخل، فالمستثمر الأجنبي سيظل حريصا على استقرار ماليزيا، كي تستقر مصانعه وشركاته بها، وهذا من أسباب صمود ماليزيا في الأزمة الاقتصادية التي زلزلت النمور الأسيوية، لأنهم أصروا على أن لا يتركوها تفشل، لأن أصولهم بالداخل.

* * *

الاستراتيجية الخامسة "فرض الشراكة بين الحكومة والقطاع الخاص وتشجيع شراكة طوائف المجتمع"

تدخل الحكومة في كل شركات القطاع الخاص كشريك بنسبة تصل إلى 30 ٪، فأصبحت الحكومة شريكة في معظم المشاريع، كثير من المشاريع تكونت عن طريق "التاجر والبنك وصاحب العقار، فأصبحت المشاريع مثل الشرايين داخل البلد، الشركات عبارة عن شركاء، وجعلت المميزات المالية للشركات المتكونة بين أعراق مختلفة، فعندما يكون الشركاء الثلاثة ملايو وهنود وصينيين، كلما كانت التخفيضات والمميزات أكثر، وهذا يسبب تعاون بين الأعراق، والمصلحة تكون أقوى من الطائفية، والشركات المتعددة الأطراف يصعب فكها، فيحرص الشركاء على نجاحها وبقائها.

* * *

هذا بالإضافة إلى أن الماليزي غير مسرف، فرغم وجود أبراج شاهقة وطرق ومظاهر حداثة، إلاَّ أنَّ البنية التحتية متواضعة في التشطيبات النهائية رغم امتيازها، فالطلاب في سكن الجامعات، يجدون أرضية الغرف بلا سيراميك ولا بلاط، فقط طبقة إسمنتية، فالتركيز فقط على الجانب الإنساني والبيئة والصحة، فلا مبالغة في المظهر.

* * *

سأل مقدم البرنامج "مهاتير": "ما هو العنصر الاساسي في نهضة أي أمة؟، هل المال؟ الصناعة؟ الموارد الطبيعية؟ الانسان؟"

توقفت أمام هذا السؤال العاطفي، وتوقعت أن تكون الإجابة هي الإنسان، لأنه مشهور أنَّ الاستثمار في الإنسان هو الأهم، ولكنه لو أجاب بأنَّه "الإنسان"، فسوف يكون الرد غير كامل وأقرب للعموم، فما كان منه إلا أنْ أجاب: "الاستقرار وسيادة القانون"، فالاستقرار يعني أنَّ من يستثمر أمواله في البلاد آمن من التقلبات والمفاجآت، وسيادة القانون تعني أنَّ القانون لن يظلم أحد ولن يسلب مال ولن يكون بطيئا في حسم المنازعات.

وبهذه الإجابة الخبيرة أدركت أنه يتكلم عن علم وتجربة، وتذكرت في بلادنا العربية، كثيرا من القرارات الفادحة والدامية التي كانت بلا دراسة، حين كان متخذو القرار لا يضعون في حسابهم تلك المعادلة:

"النهضة والتنمية = الاستقرار + سيادة القانون + أشياء أخرى"

حين سُئِلَ عن سر تأخره عن زيارة أمريكا، أجاب: "عندما أزور بلدا ناميا يحتفوا بنا، بينما الدول الكبرى ترانا متسولين، ولهذا لم أزر أمريكا الا بعد ثلاث سنوات من رئاستي".

وحين سُئل عن سبب رفضه شراء الطائرات الأمريكية "F16-F18"، قال: "لأنها تصلح للعروض العسكرية فقط وليس للقتال، حيث تضطر لطلب الكود والبرمجة من الأمريكان حين تستخدمها، هذا يعني أنه لو كان العدو صديق لأمريكا فلن يمنحونا الكود"

في إحدى خطبه قال: "إننا نعتقد في ماليزيا أنَّه من الأفضل أنْ يكون لك قطعة من كعكة تكبر، على أنْ يكون لك كعكة كاملة تنكمش"

بتلك الكلمة التي صاغها مهاتير، قفزت ماليزيا في عِقدين، انخفضت نسبة الفقر من 57٪ إلى 5٪ عام 2002م، أصبحت ماليزيا في قائمة أول عشرين دولة اقتصادية في العالم، الكل يكبر وينمو ويعيش داخل الوطن كمواطن، المناصب والفرص والخدمات للجميع، المؤهل والاستحقاق هو معيار الاختيار، الأقلية والأغلبية تدرك أنها متساوية في ملكية الوطن، وتدرك أنها تزيد مكانتها بكل العناصر في الوطن، ولا يسمحوا بأي ثقوب طائفية.

"مشاعر الأباصيري"

في مسرحية "مدرسة المشاغبين"، أمرت المُعَلمة "الأباصيري"، أنْ يقف فازداد حرجا وارتباكا وغمرته الإهانة فقال: "أربعتاشر سنة خدمة في ثانوي وبتقولي أقف؟"

كان الأباصيري وزملاؤه يريدون أنْ يتخرجوا من الثانوية العامة بالأقدمية، لكن التخرج بالأقدمية مستحيل في عالم الدراسة، والتخرج من التخلف بالأقدمية مستحيل في عالم الواقع، والمال قد يُفَبْرك وثيقة طبيب مزيفة وقد يعطي الدول المتخلفة مظهر حداثة، ولكن، لن يستطيع الطبيب أن يُوَفَّق إلى تشخيص ودواء ناجح، ولن تستطيع الدولة المتخلفة التحديث الحقيقي.

الحل المنطقي، أن يراجع "الأباصيري" أفكاره، ولكن هل هذا سهل عليه؟ كلنا "الأباصيري"، وكلنا يشعر بالتأخر عن العالم، وتغمرنا الإهانة، ونتمنى أن نُغْمض أعيننا ثم نفتحها فيتغير الحال، ولكن "ما حك جلدك مثل ظفرك"، لا بد من التفتيش في أفكارنا واختيار أفكار تصلح للحاضر.

* * *

في فيلم "بيتون بليس - peyton place"، عَرَضت إدارة المدرسة على المدير مرتب صغير، فجرى هذا الحوار:

المدير: أنت تملك هذا المصنع.. كم تدفع لكبير الملاحظين؟ أنت تدفع 200 دولار أسبوعيا، في حين تدفع لمدير المدرسة مبلغ صغير.

رئيس المجلس: هذا عمل تجاري (بزنس)، هؤلاء الرجال يصنعون منتجا يجلب أموالا، يجب أن تكون عمليا وتواجه الحقائق.

المدير: بالنسبة للناس أمثالك، التعليم شر لا بد منه، لا يمكنك أن تراه، ولهذا هو لا يساوي شيئا، ولكن، "الأشياء التي لا يمكن رؤيتها هي أكثر الأشياء أهمية على هذه الأرض، يطلقون عليها أفكار".

في هذا الحوار ندرك أنَّ المصنع يُنفق على المدرسة، ولكن المصنع ابن الفكرة، فالفكرة تسبق إنشاء الأشياء في الواقع، والأفكار شيء معنوي خطير، "نافعة أو ضارة - حية أو ميتة أو مميتة"، ولهذا لا بد من التفتيش في الأفكار أولا ودائما.

هناك أفكار تحملها الشعوب وهي سر سعادتها وتقدمها، وهناك أفكار هي سر شقائها وتخلفها ولكنها تتمسك بها وتظن أنها نافعة وربما مقدسة.

* * *

في غرفة العمليات وقف الأب ليشهد العملية الجراحية لولده، يُمسك الجراح بالمشرط، والممرضات يناولنه الأدوات الحادة، وكلما

همَّ ببسط يده ليبدأ عمله، شَهَقَ الأب وصرخ وانتفض وارتعش ولم يتمالك نفسه عن الإمساك بخناق الجراح، ونظرا لأن خروج الأب من غرفة العمليات لا يمكن إلا بعد الانتهاء من العملية، اضطر الجراح لإجراء العمليتين معا، عملية الجراحة للولد وهي سهلة، وعملية التحمل العصبي والجسدي والنفسي للأب الفَزِع.

لو سمع الناس هذه القصة، سوف يجمعوا على خطأ تواجد الأب أثناء العملية، وأنَّه عليه أن يثق بالجراح، فأغلب الناس يؤمنون بقانون "أعطي العيش لخبازه"، وأنَّ لكل منا تخصصه وخبرته وموهبته، ولكن لا يؤمنون بنفس المبدأ مع الأفكار الموروثة، فلكل أفكار موروثة حرَّاس للمعبد، ولكل حامل فكر موروث ثقة مطلقة في الفكرة التي يحملها، وآلية دفاع ذاتي لمواجهة من يقترب بالمراجعة أو النقد، ويصبح في حالة هذا الأب الفَزِع الذي يشهد عملية جراحية لابنه، ولكن هل يمكن تحصين الأفكار من الاختبار والعيش بها طوال الحياة؟ وهل كل فكرة تصلح لكل زمان ومكان؟

الأفكار المُرْهِقة والمنتهية الصلاحية ورم ولا بد أن يُستأصل ويخضع للجراحة.

* * *

في لقاء تليفزيوني مع المفكر "حسين أمين" ابن الأديب الشهير "أحمد أمين" قال: "عندما كنت في ألمانيا، سألت مدير الجامعة عن السبب

في أنَّ بناتي لا يدرسن قصائد ل "جوتة وشيلر"، وهما من أسَّس الحركة الكلاسيكية في الأدب الألماني، بينما في المدارس الإنجليزية والفرنسية يُدَرِّسون فلاسفتهم وأدباءهم الوطنيين "شكسبير، روسو، فولتير"

رد عليه قائلا: "بعد الحرب العالمية الثانية، وهزيمة النازية، راجعنا الفكر والأدب والفلسفة الألمانية، اكتشفنا أنَّ المنابع مسمومة بالأفكار التي أدت للحربين العالميتين، وأن تلك السموم تسري من "جوته إلى نيتشه إلى شبينغلر"، فتركنا كل هذا ونوينا التركيز على العلوم دون الآداب والفلسفات، حتى نتدارك الأمر ونصححه".

في هذه القصة، فتش الألمان في تراثهم الفكري ونزعوا السموم التي كانت تغذي النفسية النازية والمتطرفة، حتى لا تتكرر مأساة الحروب.

عندما سمعت الحوار خطر في ذهني سؤال، "لماذا تقدمت أغلب الشعوب وتفاعلت بالحداثة، وطاردت العلم والديمقراطية والحرية، بينما نحن ما زلنا قاعدين في التخلف والسلطوية؟ هل هناك شيء في أفكارنا المتوارثة عبر القرون تسرب إليه سموم؟، وهذه السموم تمنع انفتاحنا على الديمقراطية والحرية والعلم؟" وجدت أن هذا السؤال إجباري عندنا نحن العرب والمصريين.

* * *

في رواية مصرية، أيام الاحتلال الإنجليزي، قام أحد الحلاقين بإقناع أهل القرية أنَّ البول الدموي، علامة على فرط الصحة لأنه يدل على غزارة الدم.

ما تأثير تلك الفكرة في أهل القرية؟ وكم مثل هذه الأفكار منتشرة بين العوام؟

* * *

عام 1939، أكتشف العلماء أثر ال "DDT"، كمبيد حشري، وتمكن هذا المبيد من إنقاذ ملايين الهنود من الموت (بسبب الملاريا)، واستخدموه في القضاء على الحشرات، وتوسعت وسائل استخدامه، وقيل عنه في الصحف الغربية والأمريكية أنه المادة السحرية، قاموا برش المبيد على كل النباتات والأشياء التي تحتاج تطهير، ثم في عام 1970 اكتشفوا أنه مصدر خطير للسرطان.

قبل الاكتشاف، لو تخيلنا أي إنسان تطوع بالتحذير من ال "DDT"، سوف ينال عاصفة من النقد والتوبيخ، لأنه يفسد عليهم فرحتهم بفكرتهم عن المبيد السحري.

* * *

في كتابها الأعماق المحتلة، كتبت "غادة السمان": "في الهند عام 1981، اعترضت طريق القطار بقرة، وهم يقدسون البقر، فماذا

فعل سائق القطار؟، أوقف القطار فجأة مستعملا فرامله بطريقة أدت إلى كارثة، وقتل الآلاف، ونجت البقرة".

"وُصِفَ الحادث يومئذ بأنه أسوأ كارثة قطارات في التاريخ، وكان المسؤول عنه شبح لا يجرؤ الكثيرون علي مواجهته بالمنطق والعقل، شبح مقدس".

* * *

في زمن الحرب مع إسرائيل، كان الإعلام الرسمي والوعظ الديني يستعين بكلمات الحشد النفسي لنشر فكرة الحرب، وتم استدعاء آيات قرآنية وأحاديث وفتاوى تصب في فكرة الحرب، وحين تحولت الظروف إلى عقد معاهدة سلام، قام الإعلام الرسمي والوعظ الديني باستدعاء آيات قرآنية وأحاديث وفتاوى تصب في فكرة السلام، وفي هذا المثال تطبيق قديم لاستدعاء أفكار متناقضة يُظَن أنها تخدم الحاضر وتفيد المجتمع.

في ثورة 1919 حاول الإنجليز استقطاب المسيحيين، ولكنهم رفضوا وشاركوا بقوة في الثورة، وخطب القسيس على منبر المسجد وخطب رجل الدين المسلم في الكنيسة، ورفعت راية الهلال مع الصليب، وكان هذا العامل الأقوى في نجاح الثورة.

في الستينات من القرن الماضي كانت الأسماء المصرية متشابهة بين المسلمين والمسيحيين، "مجدي- سامي- أشرف- أيمن- إيهاب-

إيمان- يوسف.. إلخ"، ولم يكن يدور بين الناس سؤال "هل هذا مسلم أو مسيحي"، وكان التلاحم والمشاركة والمباركة في المناسبات بينهما قوية ومخلصة، ثم جاء ظرف سياسي في السبعينيات، اختفت فيه الأسماء المشتركة، ولجأ الطرفان لأسماء من التراث الديني القديم بحيث جرت عملية تمييز متصاعدة، ثم تلى ذلك فكرة دينية خطيرة تُركت لتنتشر بين المسلمين، وهي "الولاء والبراء" وما يترتب عليها من قيود التهنئة والمحبة والتعامل بين المسلم والمسيحي، فكان رد الفعل الطبيعي هو أنَّ المسيحيين طبقوا نفس الشعار عمليا، فانكمشوا في كنائسهم، وفي كل مناسبة تنطلق إعلاميا سلسلة حوارات حول حكم "تهنئة المسيحيين بأعيادهم، الترحم على موتاهم، تحيتهم.. إلخ"، وتصاعدت مشاعر الإهانة والمفاصلة بين المسلم والمسيحي، وحدث الانقسام النفسي والمادي في المجتمع المصري.

حين يبرز أمر خطير لا بد من مواجهته كما سبق في قضية الحرب والسلام، فمشاعر الطائفية تربك المجتمع وتغرقه في أزمات، وينشغل كل طرف بطائفته على حساب المصلحة الكبرى للجميع.

في الماضي كانت تحدث مصاهرات بين المسلمين والمسيحيين، فيكون الخال والخالة والجد والجدة مسيحيين، وكانت ظاهرة طيبة تصب في التلاحم بينهم، ولكن هذه الظاهرة اختفت تماما، وأصبحت بعيدة عن فكر أي أحد، أصبحت أشبه بالمُحَرَّم الغير متكلم عنه، رغم أنه مباح بتصريح القرآن الكريم.

الأفكار الخطيرة والتي تضر بالمجتمع وتفككه لا بد من مواجهتها بأفكار مضادة، ففكرة الولاء والبراء ليست واحدة في كل المذاهب، بل هي فكرة من الأفكار وهناك ما ينقدها وينقضها عند علماء آخرين، وحان الوقت لدفق تيار قوي لإنتاج أفكار، لا تصطدم بالشرع وفي نفس الوقت تزيد في لحمة المجتمع وتعيده إلى ما كان عليه من حب وتعاون وصفاء نية.

"كلمة السر"

عام 1939 توصل الفيزيائي "فردريك جوليو كوري" الحائز على نوبل، إلى برهان نهائي على أنَّ انشطار عنصر اليورانيوم "235" يتسبب في انفجار هائل ويمكن الاستفادة من هذه الطاقة، وبدأ نشاط محموم في ألمانيا واليابان وأمريكا وروسيا للسبق إلى هذا الاختراع، وسبقت أمريكا الجميع وحازت القنبلة الذرية بمساعدة فريق يضم إثني عشر عالما حاصلا على جائزة نوبل.

حين انتصر الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، تسابقت الدول المنتصرة إلى الفوز بعلماء الفيزياء، خاصة الألمان، ليضموهم إلى معاملهم التي تشتغل على إنتاج القنبلة الذرية، وبمجرد دخول الروس إلى أوربا الشرقية، اختبأ كثير من العلماء لأنهم كانوا يفضلون الانحياز للأمريكان، فنموذج الحياة الشيوعي لم يكن جاذبا لهم، وكان الروس يتوقعون صنع قنبلتهم الذرية في عام 1955، بينما كانت الخطة الأمريكية "ترايان"، تعمل على أن يقوموا عام "1950" بإلقاء "300" قنبلة نووية على سبعين مدينة سوفيتية وينفردوا بقيادة مبكرة للعالم.

بعد إلقاء القنبلتين الأمريكيتين عام 1945 على هيروشيما وناجازاكي باليابان، كان الرعب يسيطر على الروس، ولكن كان لديهم ميزة فريدة،

أنَّ أغلب جواسيسهم في أوروبا من اليهود، وبالفعل كان الذي سرَّب من المشروع النووي الأميركي "150" رسما للأجهزة الضرورية لإنتاج القنبلة يهوديا، كما أنَّ الذي تسلمت منه الرسومات وأعطتها للمخابرات الروسية، الجاسوسة " لونا كوهين" وزوجها "موريس كوهين"، فاليهود هم من أنقذ الروس من التهديد بالفناء، وتمكنت روسيا من إنتاج القنبلة عام 1949، وحين قدَّم "ستالين" أرفع الأوسمة للعلماء الروس في احتفاله بإنتاج القنبلة الذرية الروسية، قال:

"لو تأخرنا عاما واحدا لكانت تجربة القنبلة النووية فوق رؤوسنا"

هذه القصة تخبرنا بسبب تحول الإتحاد السوفييتي من أكبر نصير للقضية الفلسطينية إلى ثاني دولة تعترف بإسرائيل بعد أمريكا.

هناك قصة أخرى توضح سببا آخر لتسريب سر القنبلة للروس، وهي أنَّ طول عهد اليهود بالاضطهاد في أوربا جعلهم قادرين على قراءة المستقبل، فامتلاك قوة واحدة بالعالم للقنبلة الذرية يعني انفرادها بكوكب الارض وفقد التوازن، فكان القرار بتسريب أسرار القنبلة للروس.

* * *

عانى اليهود اضطهادا شديدا وطويلا في أوربا، ما إنْ يحدث طاعون أو مصيبة، حتى يتطَيَّر المسيحيون من اليهود ويعتبروهم سبباً لأي

وباء وبلاء، المدهش أنَّ العلماء الغربيين يُجمعون على أنَّ اليهود لم ينعموا في حياتهم بالأمن إلا في بلاد المسلمين، في الأندلس وفي ظل الدولة العثمانية.

في عام "1905"، ناضل "بلفور" اليهودي لإقرار قانون "الغرباء" في البرلمان الإنجليزي، قانون متحيز ضد اليهود، ينادي بالمنع والحَد من هجرة اليهود من أوربا الشرقية إلى المملكة المتحدة، انعقد المؤتمر الصهيوني السابع، وجاهر بالسخط والغضب الشديد على "بلفور"، اتهموه بأنه معاد للسامية، ولكن في عام "1917"، انعكس موقف "بلفور" وأصدر وَعْدَه الشهير بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وأصبح "بلفور" يتفاخر بأنه صهيوني، فما الذي غير موقفه في عشر سنين؟.

كانت الحرب العالمية الأولى على أشدها، وكان البارود الطبيعي قليل عند الدول المتحاربة، توصل عالم الكيمياء اليهودي "حاييم وايزمان" صاحب كتاب التجربة والخطأ لآلية جديدة لاستنباط "الأسيتون الصناعي" الذي يستخدم في صناعة بارود المدافع، تمكن الإنجليز بفضله من توفير كميات هائلة منه صناعيا في الحرب، أحدث هذا الاكتشاف تفوقا هائلا لصالح الحلفاء، فكان النصر، لا يعلم أحد مصير الحلفاء لولا هذا الإختراع، كان هذا سر انقلاب موقف بلفور من اليهود، فقال كلمته الشهيرة: "لقد صهينني

الأسيتون"، كان التفوق اليهودي في الكيمياء والفيزياء السبب الرئيسي في ضياع فلسطين.

* * *

عندما عرض "الخديوي إسماعيل" بيع أسهم قناة السويس على الفرنسيين، علمت المخابرات الإنجليزية بالمفاوضات رغم سريتها، فتدخلت إنجلترا وعرضت الشراء، وتلكأت فرنسا طمعا في مزيد من التنازلات، فما كان من "دزرائيلي" رئيس وزراء إنجلترا اليهودي، إلا أن أسرع إلى صديقه اليهودي "روتشيلد"، والذي كان يُقرِض الدول، وأخذ منه التعهد بتمويل الصفقة فورا، نظرا إلى أن موافقة البرلمان قد تستغرق وقتا، مما يعطي فرصة لفرنسا أنْ تسبقهم إلى هذا الصيد الثمين، وكان ذلك إيذاناً بتطورات سياسية خطيرة لصالح سيطرة بريطانيا على مصر، ثم احتلالها فيما بعد بسنوات قليلة.

وهكذا كان العلم والمال - وأضيف لهما فيما بعد "الإعلام" - أدوات السيطرة اليهودية.

* * *

حصل "180" يهودي على جوائز نوبل من أصل "900" جائزة، أي أنَّ اليهود الذي يشكلون 0.2 ٪ من سكان العالم حصدوا 20 ٪ من الجائزة بفروعها المختلفة

يحكي أدوارد سعيد: "معي في القسم، زميلة وطالبة هندية يَسارية، تُساند الفلسطينيين وتهاجم الإحتلال والعنصرية الإسرائيلية، علمت دولة إسرائيل أنَّ لديها موهبة في الأدب والنقد، لو تركوها ليبرز نجمها مستقبلا، تصبح سلاحا مسلطا على إسرائيل، تهافتت عليها الجامعات والجمعيات الأدبية الإسرائيلية والغربية المدعومة من إسرائيل، تدعوها لإلقاء محاضرات وتمنحها جوائز، أغرقوها بالمنح المالية والتقدير المعنوي، قابلتني بعد ذلك فقالت لي: "ما زلت أرى أنَّ إسرائيل دولة استعمارية، لكن ما حصل لي من إحسان فوق الطاقة، فالذي أحسن إليَّ ليس الحكومة، إنما المجتمع الجامعي والناس، أنا مُقَيَّدة بإحسان لا فكاك منه".

وهذا يفسر سر وقوف أعضاء الكونجرس الأمريكي ساعات لا يتوقفون عن التصفيق والثناء حين يتصدر المنصة زعيم إسرائيلي ليتحدث، فالكرم الحاتمي الإسرائيلي غمرهم وأَسَرَهم عبر عقود طويلة.

* * *

مجرد غرس قيمة أو هدف في الأطفال يتسبب في مكسب هائل، كتب الشيخ "علي الطنطاوي" في مذكراته أنه في شبابه، كان يُدَرِّس في إحدى المدارس في العراق، وكان الذي يتصدر المراكز المتقدمة هم الطلبة اليهود، وأثار هذا ضيق المدرسين المسلمين، فالأغلبية مسلمة

واليهود أقلية، فاتفقوا على أنْ يقوموا بفرض مواد قرآنية وإسلامية في المنهج، وبهذا سوف يكون صعبا على اليهود التعامل مع تلك المواد، فيصعد بعض المسلمين للمقدمة ويتشجع آخرون، ولكن الذي حدث أنَّ التلاميذ اليهود حفظوا ودرسوا المنهج الجديد، ونجحوا بتفوق في النظري والشفهي، ولم يتغير الوضع، وذكر "طنطاوي" أنَّ الأمر ليس متعلقا بالذكاء ولكن التربية، فالأسر العراقية لم تكن تُحَرِّض الأبناء على العلم والتفوق، بينما اليهود كانوا يُرَبُّون أولادهم على التفوق وعشق العلم والتعلم، لم يَتَزَمَّت اليهود ويمنعوا أولادهم من حفظ القرآن وأحكامه، بل حرَّضوهم على التفوق على الطلاب المسلمين في دينهم، فلا عُقَد ولا تَنَطُّع.

إنَّ مجرد تلقين الأطفال هدف قِيَمي وحيد، تسبب في سيادة اليهود للعالم، قيمة حب العلم والإصرار على التفوق فيه لأقصى مرحلة، هذا الهدف هو الوحيد الذي أنقذ اليهود من الفناء وخاصة في ظل الكُرْه المتحامل والمتطرف من الغرب لهم.

هذا هو تأثير اليهود عالميا، قاموا بالتركيز على العِلم الرفيع والثقافة وأدواتها، عاشوا فاعلين ومنفعلين بالبلاد التي يسكنوا فيها، قاوموا مشاعر الأقلية، كم نسبة الأقليات المسلمة في أوربا وأمريكا مقارنة بالأقليات اليهودية؟ اليهود قليلون جدا مقارنة بهم، ومع ذلك فما زال المسلمون في أوروبا وأمريكا منعزلين تماما عن البيئة الغربية

ومنكمشين ولا يشاركون في أي من المحافل الثقافية أو الإعلامية أو السياسية، بل لو سألت أي منهم عن تاريخ وعادات وثقافة وقيم المنطقة التي يعيش فيها لما استطاع الإجابة، فكلمة السر هي: "التكيف والفاعلية والتعاون"، ورفض أن يعيشوا كطائفة غريبة في الناس.

بينما نحن مازلنا نبحث عن الهوية ونناقش الأصالة والمعاصرة، ونحلم أن يستقر مركبنا على شاطئ.

"خارج الصندوق"

في الفيلم الأمريكي "العطلة" (the holiday) فتاتان، الأولى في أمريكا وهي فتاة ثرية وتسكن في منزل فَخم، والثانية في بريطانيا وتسكن في منزل ريفي متواضع، كل منهما خاضت تجربة خِيانة شخص ظَنَّت أنه سيكون شريك العُمر، تغمرهما كآبة وتُفكران في السفر إلى مكان بعيد، تنشر الإنجليزية إعلان لمن يرغب في قضاء أسبوعين بمنزلها في عطلة الكريسماس، تقرأ الأمريكية الإعلان وتتفاوض معها، فتصر الإنجليزية على أنه إعلان تبادل سكن وليس إيجار، وهذا يعني أنَّ كل واحدة تسكن محل الأخرى لمدة أسبوعين، توافق الأمريكية الثرية وتسكن في المنزل الريفي المنعزل وتستعمل أدوات المنزل البسيطة ووسائل الانتقال البدائية، بينما الإنجليزية تحيا في مسكن أشبه بالقصر، وتتمتع بما فيه من ترف ورفاهية.

حاولت تخيل هذا التبادل في مجتمعنا المصري فضحكت لأنه أقرب للخيال العلمي، فنحن نخاف على النِيْش والحَسد والأعمال السُفلية.

تصلح هذه الفكرة لسكان الإسكندرية والقاهرة وأسوان ومدن مصرية عديدة، لو نشأ موقع الـكتروني لتبادل السكن، يقوم بتدبير تواصل وعَقْد اتفاق بين الطرفين، فتتمكن الأسرة التي في

الإسكندرية من السكن في القاهرة أو أسوان، مقابل ترك مسكنهم للأسرة الأخرى لفترة زمنية، وبهذه الطريقة تنخفض التكاليف المادية على الطرفين، وقد يطبق هذا على أفكار أخرى، مثل طالب يدرس بالإسكندرية وآخر في القاهرة أو المنصورة، يتم تبادل السكن أو تقوم أسرة كل طالب باستضافة الطالب الآخر سواء في منزلها أو في سكن تدبره له على أن تقوم برعايته، فلا يشعر كلاهما بالغربة.

مجتمعنا للأسف غير متحرك، ويرفض بنفور الأفكار الجديدة، ولكن مجرد الشروع في تطبيقها فرديا يُسَهِّل انتشارها.

قرأت عن صاحب مؤسسة صناعية كبرى، كان يعهد لأبنائه الذكور بالعمل في مؤسسته في الإجازات الصيفية، وبدأ في المرحلة الإعدادية بأن عهد إليهم العمل كصبي لساعي مكتب، يقوم بإعداد المشروبات وجلب الطلبات ويخدم الموظفين، وكان الأب يتعمد أن يجعلهم يَنْفِضوا المشاعر المصاحبة لهذا العمل حين يعودوا للمنزل، فيستردوا مشاعر أبناء الثري صاحب المصنع، وبمرور السنين تمرس الأبناء في جميع الوظائف "الخَدَمية - المالية - الفنية - الإدارية - القيادية"، وكانت النتيجة أنهم حفظوا المؤسسة وساهموا في تطورها، ونجحوا في خلق مناخ من الإخوّة بين الموظفين، لأنهم امتلكوا خبرة ومشاعر أصحاب كل الوظائف، ولم ينظروا إليها من الخارج، ويرجع الفضل للأب الحكيم الذي فكر خارج الصندوق.

أرملة تحيا في شقة وحدها ويتناوب أولادها على زيارتها والمبيت معها، ولها أخت أخرى تحيا وحدها في بلدة مجاورة، كلاهما يعاني فراغا أو اعتلال صحي، وحين عُرِضَ على كل منهن أن تنتقل لتسكن مع الأخرى، رفضت كل واحدة وقالت: "أنا لا أستريح إلا في بيتي". هذا موقف من يتجمد داخل الصندوق.

في جلسة مع صديق قال: "أفَضِّل حين يحين الوقت وأحتاج رعاية خاصة، أن أنتقل لبيت رعاية مسنين، أنا لا أطيق الوحدة ولا الجلوس في البيت، ودار الرعاية توفر لي رؤية شخصيات كثيرة أسامرها وأتفاعل معها، وفي نفس الوقت لا أسبب ارتباك لحياة أبنائي، نعم هم أوفياء لي ولكن دار المسنين ستكون أفضل، ومن يريد رؤيتي منهم يزورني أي وقت.

هذا مثال للتفكير خارج الصندوق، بتخيل زاوية مختلفة للحدث، حيث المعتاد تخيل دار المسنين منفى ووحدة، وعلامة على تخلي الأبناء عن الآباء والأمهات، بينما تخيل صديقي الدار فرصة اختلاط بالناس وتنوع وحرية. قد لا يلائم خياره هذا شخصيات أخرى، ولكنه ضرب مثالا للتفكير خارج الصندوق.

القرب المكاني له ميزة كبيرة، فمن يتزوج جارته ويسكن قريبا من أهله وأهلها ينال ميزة، أعرف طلابا يسافرون للقاهرة لينالوا درساً خاصاً عند أحد المعلّمين، في حين يسكن في نفس الشارع من يستطيع أن يشرحه

لهم بنفس المهارة، ولكنهم لا يعرفونه، وبنفس المنطق لو عملنا مسحاً في نفس الحي لعدة شوارع متجاورة، لاكتشفنا حالات متكررة لسيدات ورجال مسنين يعيش كل منهم في بيت وحده، ويتكفل الأبناء التناوب على رعايتهم، ماذا لو تعاونت الأسر على توفير شقة أو مكان فسيح في نفس الحي، وكأنها دار مسنين عائلية، تجمعهم في ظروف معيشية طيبة تبعث على البهجة والأنس، في هذه الحالة تتوفر لهم الرعاية والوَنَس ويتناوب الأولاد والأحفاد زيارتهم، وخاصة أنهم يعيشون في نفس الحي الذي عاشوا فيه شبابهم، كما يسهل لهم الانتقال للعيش مع أولادهم متى شاءوا ثم يعودون إلى الدار، وربما قرر أفراد من أهل المسنين خدمتهم، فيصبح الأمر أكثر حميمية، حيث يتواجد الأبناء والبنات والأحفاد مع المسن في المكان، يخدمون الجميع في عملية تناوبية بينهم.

هناك فيلم مصري يجسد التفكير خارج الصندوق بامتياز، ولكنه للأسف كان يحمل فكرة كالجوهرة وانحدرت لتتحول لفيلم كوميدي، فيلم "سيداتي آنساتي"، تدور أحداث القصة حول شاب حاصل على دكتوراه ويتقاضى أجرًا أقل من الساعي الموجود بالشركة، يقرر التقدم للعمل كساعي بهدف زيادة أجره، تُقرر أربع موظفات بالشركة الزواج منه معا، بهدف التغلب على أزمة الإسكان والأزمات الاقتصادية المختلفة، ولكن بشرط بقاء العصمة في أيديهن.

في هذا الفيلم كسر نمط تفكيري ثابت، حيث تقرر أربعة آنسات الزواج من رجل واحد بحيث تحل كل واحدة مشاكلها، فقد كانت الأولوية عندهن ليست الزواج، ولكن التغلب على عقبات وتحقيق أحلام أخرى متوازية، فالزواج قرار بجانب قرارات، وحاجة بجانب حاجات، وفي هذا الفيلم ضبط ما نعده غريزة في المرأة وهي الغيرة، ظهرت النساء بمظهر عاقل متزن وعملي، وفي نفس الوقت تراجعت العاطفة المفرطة لدى النساء، بالإضافة إلى أن فكرة العصمة بيد الزوجة تعبر عن فكر جديد، وهذه مشاهد خارج الصندوق، فكل النساء ضحايا قضبان حتمية الزواج والإنجاب كهدف وحيد للحياة، في حين أن ليس كل الرجال أو النساء يصلحون للزواج، وليس كل الرجال والنساء يريدون الـزواج، ولكن في مجتمعنا تتوقف وتتعكر الحياة إن لم تتزوج أو تُنْجِب.

في "البخاري" قصة مدهشة، تحكي "أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ بنْتَ أَبِي سُفْيَان أَخْبَرَتْهَا أَنَّهَا قالَتْ: يا رَسولَ اللهَّ، انْكِحْ أُخْتي بنْتَ أَبِي سُفْيَانَ، فَقالَ: أَوَتُحِبِّينَ ذَلِكِ؟! فَقُلتُ: نَعَمْ، لَسْتُ لكَ بمُخْلِيَةٍ، وأَحَبُّ مَن شَارَكَنِي في خَيْرٍ أُخْتِي، فَقالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّ ذَلِكِ لا يَحِلُّ لِي."

قصة مدهشة وغير مألوفة وترسم لوحة غير معتادة لردود أفعال نسائية مختلفة.

هناك مثل يقول: "عندما تقع في حفرة توقف عن الحفر"، هذا المثل يعبر عن حال المصريين، لأنهم عبر عشرات السنين كلما وقعوا في

حفرة واصلوا الحفر، وتمر الأيام والسنون، وكلما نظروا لأعلى وجدوا السماء تبتعد، ولا يخطر ببالهم التوقف عن الحفر.

نحن باجترار الأفكار داخل الصندوق نحفر ونهبط، ومثال ذلك إجراءات الزواج التي تزداد تعقيدا مع زيادة الأسعار وارتفاع سن الزواج وكثافة حالات الطلاق، في حين أنَّ المتوقع أن نفكر خارج الصندوق لكي نخفف المعاناة، من يرصد تطور حفلات الزفاف يدرك كيف نحفر كل يوم طقوس جديدة تكلف مزيدا من المال، ومن يرصد تطور ما تجلبه العروس من ملابس وما يسمونه رفايع، يرى زيادة في عدد الملابس والتي تكفي الزوجين سنينا طويلة، حتى أنَّ الأب يتساءل؛ وهل عليَّ أن اكسوهم لعشر سنوات مقدما، هذا الحفر في بئر طقوس الزواج جعله شاقا على غير القادر، بينما في الماضي كانت العروس تغادر بيت أبيها بصندوق به متاع، ثم تحول بجهلنا إلى صناديق تحملها طابور من العربات، تتكلف مئات الآلاف من الجنيهات، ولهذا فالنظر داخل الصندوق يؤدي للحفر في المكان وتعميق الأزمة.

في عام 1974 كان مهاتير محمد ضيف شرف في حفل الأنشطة الختامية لمدارس "كوبانج باسو" في ماليزيا. ذلك قبل أن يصبح وزيراً للتعليم في السنة التالية، ثم رئيساً للوزراء عام 1981، قام مهاتير في ذلك الحفل بطرح فكرة عمل مسابقة للمدرسين، وليست

للطلاب، ثم طلب أن يأخذ كل مدرس بالونة وينفخها، ومن ثم يربطها في رجله، قام كل مدرس بذلك، جمع مهاتير جميع المدرسين في ساحة مستديرة ومحدودة، قال: لدي مجموعة من الجوائز وسأبدأ من الآن بحساب دقيقة واحدة فقط، بعد دقيقة سيأخذ كل مدرس مازال محتفظاً ببالونته جائزة، بدأ الوقت، وهجم الجميع بعضهم على بعض، كل منهم يريد تفجير بالونة الآخر، حتى انتهى الوقت، وقف مهاتير بينهم مستغرباً، وقال: لم أطلب من أحد تفجير بالونة الآخر!، ولو أن كل شخص وقف من دون اتخاذ قرار سلبي ضد الآخر، لنال الجميع الجوائز.

وهنا أعطاهم درسا في التفكير خارج الصندوق، ففي مسيرة حياتنا، معارك طاحنة، كان من الممكن أن يحتفظ الجميع ببالونته، ويسعد ويأمن ويرضى.

بليغ حمدي

في حوار سيدة الغناء العربي "أم كلثوم" مع الملحن العبقري "بليغ حمدي" سألته عن لحن في أغنية "سيرة الحب"، من أين جاء بها؟، فأجابها: "أنها مستوحاة من لحن موسيقار معاصر لسيد درويش"، وذكر أسم الملحن والأغنية، فنظرت إليه بإعجاب وقالت: "قل للست الوالدة تبخرك"

* * *

هذه القصة قرأتها وللأسف فاتني أن أنسخها، وظلت تشتغل في فكري وخيالي طويلا منذ لحظة قراءتها، لأنَّ بليغ حمدي أثبت لها أنه مثقفا بامتياز، فالمثقف هو الذي لا يترك معلومة في مجال موهبته أو اهتمامه إلا وقرأها، ووسط آلاف المعلومات يقوم بإبداع لحنه الخاص، وهذا ما جعل "بليغ" مختلفا عن غيره من الملحنين.

* * *

هذه القصة جعلتني أنظر بحسد إلى الفنانين الذين تُغَلَّف ثقافتهم بالفنون، فالفنون يفهمها كل الناس، فحين قام "بليغ" بتلحين خلاصة ورقة من ثقافته وعبَّر عنها في أغنية "سيرة الحب" خرجت ثقافته لحنا يسري في وجدان الجميع ويفهمه ويتذوقه كل الناس.

ولهذا حَسَدْتُ "بليغ" المثقف، لأن المثقف عندنا والذي بضاعته الأفكار لا يستطيع التلحين، فتخرج كلماته وأفكاره مادة خام صعبة الفهم والتلقي، فتمكث في داخل الصفحات عشرات السنين بلا قارئ، ومثال ذلك "زكي نجيب محمود" الذي أعتبره هدية مصرية للفكر العربي، لم يجد "زكي نجيب محمود" من يلحن أفكاره ورسالته التي سطرها في سلسلة كتبه.

* * *

انتشر مذهب الوجودية في العالم مثل النار في الهشيم، لا يرجع السبب لقوة المفكرين وراء المذهب، ولكن لملحن موهوب، لم يكن ملحناً موسيقيا، ولكن أديب روائي، أسمه "سارتر"، قام سارتر الموهوب بتلحين الوجودية في رواياته ومسرحياته، ليس تلحينا موسيقيا ولكنه حَوَّلَ الأفكار الصلبة إلى قصة وحوار وسيناريو وشخوص وجُمل يفهمها وينفعل بها الإنسان العادي، وبهذه الوسيلة تنسب الوجودية لسارتر فلا تذكر إلا ويذكر معها نبيها "سارتر"، الذي جعل الوجودية تيارا شعبيا في العالم.

* * *

في طفولتي كنت أقرأ مجلة "ميكي"، وكان يعجبني شخصية "بطوط" المنحوس، شخصية لا تستخدم عقلها أبدا، شخصية مَلطشة، تثير

الشفقة ويتعاطف معها الناس بدافع الرحمة، ويقابلها شخصية تتميز عليها بالحظ وليس العقل، وهو "محظوظ"، شخص يلمس التراب فيتحول إلى ذهب، لا موهبة ولكن حظ، وكأن القيم التي أمامنا تتأرجح بين شخص بليد وشخص محظوظ، لا مواهب ولا كفاح ولا ثقافة وإبداع.

هذا البطوط هو اليوم المصري المُربك المرتبك، تخلى عن قيمه وثقافته وملابسه وتراثه وأصبح عاريا تائها حائرا، ينظر إلى المستقبل وينتظره بشك، والسبب أنه ومنذ الاستقلال أصبح مفعولا به، ارتد إلى الطفولة، وتوقف نموه، وفقد المبادرة والمسؤولية، ينتظر الرضعة من السلطة، ويوما بعد يوم تقل الرضعات وتشح حتى توقفت، فزاد ارتباكه، لأنه لم يتعود على أن يكون مسؤولا، وهذه هي خلاصة اللحظة، فالأطفال يبكون ويشتكون ويصرخون ولا يتعاونون على فعل مشترك مسؤول، والمصريون اليوم كذلك.

* * *

المثقف النخبوي هو الحل، بلد بلا نخبة مثقفة ستضيع حتما، شعب بلا نخبة هو طفل في غابة، يكون أقرب للهلاك منه للنجاة، والمثقف يحتاج مترجم، والمثقف يحتاج من يلحن له ألحانه كي يفهمها الناس، والمثقف متهم، متهم في نيته وعلمه وفهمه وعقيدته، ومتهم في قدرته على شرح أفكاره، والمثقف هو مرَوّج فاشل لسلعة غير رائجة، قد

تكون سلعة ذهبية ولكن كيف يفهم الناس أنها ذهبية؟، فالغلاف أشبه بورق اللحمة المنقرض، لا يتصور أنَّ بداخله شيء ثمين، والمثقف مرتبك بسبب الناس والسلطة، لا يفهمه الناس ويتهموه، والسلطة تضعه تحت الميكروسكوب كل لحظة، وحين يوسوس له الشيطان سوف تسحقه بالشبشب كما الصرصار.

* * *

في طفولتي كان الإتحاد السوفيتي يصدر كتبا لتبسيط العلوم، ما أصعب هذه المهنة وما أندرها، تجد صفحة مرسومة ومكتوبة بعنوان "كيف اخترعت الطيارة"، وتقرأ قصة جميلة وسهلة وممتعة، وتصبح طفلا يفهم معلومة معقدة تم إسالتها من مؤلف موهوب، وتفوز بهذه الطريقة بطفولة راشدة.

المجتمع المصري المُربك المرتبك يحتاج من يبسط شروح وحلول للمأزق الذي نحن فيه، يحتاج من يلحن الأفكار كي يفهمها ويحسها الناس، روائيين وشعراء ومطربين، كل هؤلاء يشتغلون على بضاعة المثقف، لن يفهم الشعب أنه يعاني ولن يفهم أنه سبب المعاناة ولن يفهم الحلول إلا بمثقف يصحبه ملحن، شخص يخرجه من مأزق تهمة التعقيد والتعالي.

* * *

الأمل في هذا المصري المُربك المرتبك، فحين ارتبك انتقلت عدوى ارتباكه لكل العرب، ولا حل إلا بشفائه، وما حك جلدك مثل ظفرك، وبحمد الله هناك واقع يبعث على التفاؤل، أنَّ قدر الارتباك يقابله قدر الفرص والإمكانات، ولهذا هناك أمل.

لا يوجد نابغة مصري لم يكن قارئا ومثقفا، أم كلثوم ليست مجرد صوت ولكن صوت مثقف، وكذلك كل صاحب فن، الثقافة وراء كل موهبة، والمواهب التي تساقطت مبكرا كانت لا تقرأ، كما أن شُح المواهب حاليا بسبب تراجع القراءة.

* * *

لم يتخلى الحظ عن مصر، ولكن تخلى المصري عن نفسه، واليوم يدرك المصريون هذا الخطأ، وبدأت الطبيعة المصرية تشتغل لتسترد عافيتها، الجيل الجديد المثقف بدأ في البروز في السنوات الأخيرة، جيل حر، جيل لم يهان، جيل ابن عصره، جيل سيجمع بين الثقافة واللحن يعزف ويفهمه الناس ويتجمعون حوله ويستردوا أنفسهم.

الجهد المثقوب

"لماذا خالص جهد أغلب بلاد العالم، (يَنمو ويُثمر ويَبني ويُضيف ويَعلو) مهما كان حجم الظالِمين والمَظلومين والظُلمات في بلادهم؟ ولماذا خالص جهدنا في بلاد العرب، هباءً منثورا، في كل وقت وكل مكان وكل حال وعقب كل قرار؟"

لا يوجد شر محض ولا خير محض، لا بد أن ينفلت من الشر براعم من الخير مهما صغرت، لماذا لا تنبت هذه البراعم عند العرب؟

ما هو الفيروس الذي يحبط كل أعمالنا؟، ولماذا سقطنا من تصنيف العالم الثالث، لنصبح وحدنا العالم المأسوف عليه، والمغضوب عليه، والمُحْتَقر؟، بل أوشك الإعلام على نشر فكرة أننا ورم، إنْ تم استئصاله سيُشفى كوكب الأرض؟

هل أبالغ؟، هل هي حالة نفسية متوهمة؟، أم واقع خطير نرفض الاعتراف به؟

في فيلم "عائلة زيزي"، تشتهر جملة "فؤاد المهندس": "الماكينة طلعت قماش"؟، الماكينة العربية هي الوحيدة في العالم التي لم تنتج قماشا منذ قرون.

* * *

عام 1972م، زار الرئيس الأمريكي "نيكسون" الصين، قال له زعيم الصين "ماوتسي تونج":

"نحن بلد فقير ولا نستطيع إعطاء أمريكا شيء ولكن نستطيع إعطاءكم عشرة ملايين أمرأة صينية"، وكلما تغير الحديث عاد "ماو" ثلاث مرات لنفس الموضوع، ليؤكد جِدية عرضه، لولا أنْ حذَّره رفاقُه من خطورة هذا العرض إعلاميا.

قصة فدادين خمسة "الناصرية" هي أحد نسخ الإشتراكية التي سبقنا إليها "ماوتسي" عام 1949م، صادر الأراضي الزراعية ووزعها على الفلاحين، سمح بإهانة الإقطاعيين وملاك الأراضي أمام الشعب والإعلام، وانطلقت جرائم قتل جماعي لمليون إقطاعي، ثم استرد "ماوتسي" الأراضي ثانية بعد سنوات قليلة من الفلاحين، لينشئ مزارع جماعية، عادت الأرض للدولة، ووقَّع الفلاحون تنازلا عن الأرض، "ويا فرحة ما تمت خدها الغراب وطار"، وسببت الثورة الزراعية التي ابتدعها "ماوتسي" مجاعة أودت بحياة "ثلاثين مليون" صيني.

خاض "ماوتسي" مقاومة ضد القوميين، هرب منهم بجيش قوامه مائة ألف، في ملحمة اسطورية لمدة سنوات، عبر مسافة ستة ألاف كيلومتر، ولم ينج من الجيش سوى عشرون ألفا، وهلك كل الزعماء من رفاق السلاح ولم يبق سواه كقائد.

في 1966، أشعل الثورة الثقافية الكبرى، أراد سحق المعارضة، فقام بإطلاق ملايين الطلبة من المدارس العليا والجامعات ليخدموا كحرس حُمر وسببوا الفوضى في البلاد، دافعيين بالصين إلى حافة حرب أهلية ضارية.

هذه لقطات من "مـاوتسي" الديكتاتور الذي عاش كإله بين الصينيين، وضحاياه عشرات الملايين، ومع ذلك، رغم (الظلم والتأله والدم والتخبط واللعب بالشعوب)، أنتج قفزة كبرى للأمام، وها قد أشرقت شمس الصين على العالم.

لماذا دكتاتوريات الأمم فيها بَرَكة.. ودكتاتوريات العرب منزوعة البركة ومشؤومة؟

* * *

في الإتحاد السوفيتي قام "ستالين" بنفي وسجن عشرين مليون روسي كي يستغلهم كأيدي عاملة مجانية، مات منهم مليونان من الجوع والمرض والقهر، والتهمة المتكررة هي عدم الولاء للوطن، والوطن هو "ستالين"، وعلى مدار ربع قرن حكم بقبضة من حديد وتسببت قراراته المختلفة في قتل ما لا يقل عن عشرين مليون شخص، ليصنف بذلك ضمن قائمة أكثر الشخصيات دموية بالتاريخ البشري، ثم خرج الإتحاد السوفيتي على يد "ستالين" القوة الثانية في العالم.

وأعود لأتساءل، لماذا دكتاتوريات الأمم فيها بَرَكة.. ودكتاتوريات العرب منزوعة البركة ومشؤومة؟

* * *

في برنامج "شاهد على العصر" الذي يستضيف رائد النهضة الماليزي "مهاتير محمد"، سأله مقدم البرنامج عن سبب ثنائه في مذكراته على الإستعمار البريطاني، قال:

"قبل الاستعمار البريطاني كان الحكم الملكي الاستبدادي، يُسيطر على كل شيء ويحوز كل شيء، فلا يصل كثير خير إلى الشعب، الإنجليز منظمون، وأسلوب الحكم كان مفيد مقارنة بالاستبداد، فالقانون مطبق ولم تكن هناك اجراءات عشوائية خارج القانون ضد الأفراد، وكانت جباية الضرائب أكثر كفاءة وتؤول إلى خزينة الدولة وليس الملك، ويؤخذ منها للتعليم والعلاج الطبي والإنشاء، وضبطوا القضاء وأداروا الأمور بشكل أفضل من المَلك".

أدهشني في كلامه سلامة صدره ورجحان عقله، فقد كان مجاهدا ضد الاستعمار ولكنه مدح ما فيه من خير، والخلاصة التي قالها أنَّ: "الاستبداد أسوأ ألف مرة من الاحتلال"، والمدهش أنَّه نفس الرأي الذي ذكره عالم الإجتماع "علي الوردي"، في كتاب "لمحات إجتماعية من تاريخ العراق"، وأضيف القول:

"الاستبداد العربي أسوأ استبداد في كوكب الأرض".

* * *

العرب لم يكونوا أغنياء مثلما اليوم، الثروة التي توفرت في الوطن العربي بسبب البترول والثروات الأخرى لو قُسِّمَت على كل فرد في الوطن العربي لنال كل واحد ثروة طائلة، ولكنها حين وضعت في أيدي الحكام أصبحت شؤما على الشعوب، فلا الشعوب تنعمت بالثروة ولا نجت من ويلات الحروب والفتن التي سببتها تلك الثروة.

* * *

في مصر حين انطلقت ثورة 1919، صدر دستور 1923م، كان المفترض تطبيق نظام المَلكية الدستورية كما في "إنجلترا"، ولكن لم ينتبه "سعد زغلول" وزملائه إلى الفخ الذي أبطل كل شيء، هذه الفقرة في الدستور تقول، "من حق الملك حل البرلمان وتشكيل حكومة حتى لو كانت من الأقلية"، وكان كلما فاز الوفد بالانتخابات يقوم الملك بحل البرلمان وتشكيل حكومة مؤيده له. والنتيجة أنْ فسدت الحياة النيابية بمصر.

* * *

حين تحررت الهند استلم الحكم حزب "المؤتمر الهندي"، وأكمل المسيرة، وهو الحزب الذي كافح الاحتلال، فكان للهند الفرصة في الاستفادة من تراكم خبرة الكفاح، فالذي قاد حركة الاستقلال هو الذي مارس البناء، وساعد هذا على صعود الهند كدولة كبرى، ولم

يكن هذا بسبب طيبة قلب بريطانيا، ولكنها اكتفت بفصل باكستان عن الهند في نفس يوم الإستقلال، ورحلت تاركة فخ العداء بين الهند وباكستان.

أما مصر، فحين تحررت، كان شعار الحركة "بناء حياة ديمقراطية سليمة"، ولكن حدث العكس، ألغيت الأحزاب ومعهم حزب الوفد الذي كان يملك الخبرة الـكبرى لقيادة مرحلة ما بعد الإستقلال، وتزامن مع القرار، انفصال "السودان" عن مصر، ففقدت مصر امتدادها الطبيعي وشريانها، وبهذا حُرمت مصر من الجناحين الذين ستطير بهما إلى المستقبل.

* * *

عندما يعيش الإنسان في كدر متواصل، فلا يمر يوم إلا ويجد من يعكر عليه يومه، حجر يلقى عليه ثم يلتفت فلا يجد أحدا، قاذورات توضع أمام باب البيت، سباب وافتراء مكتوب بالطباشير على باب البيت، عربة تتجه إليه بأقصى سرعة فيظن أنها ستصدمه، ثم تحيد وقد غاص قلبه في قدمه، مادة سائلة توضع في طريقه فينزلق على ظهره ويكسر عظمه، أحداث كثيرة مجهول فاعلها.

يجتهد ولا يقدر على حل اللغز، يظن أن المجرم فلان أو فلان، ينقل التهم والظنون من شخص لآخر، وتتعقد الحيرة، قد يكون معذورا مَن في مِثل موقفه.

لكن، لو كان هذا النكد يحصل له في بيته، ثم يدعي الحيرة، فلا بد أنه يُلَبِّس على نفسه، لأنه على يقين أن من يكيد به من أهل داره، وأنَّ عليه أن يتغلب على تحفظه وحيائه، ثم يواجه الفاعل مهما كانت قرابته له، ليس لدينا رفاهية قصيدة ثورة الشك "عَلَى أَنِّي أُغَالِطُ فِيكَ سَمْعِي - وَتُبْصِرُ فِيكَ غَيْرَ الشَّكِّ عَيْنِي- وَمَا أَنَا بِالْمُصَدِّقِ فِي قَوْلاً- وَلَكِنِّي شَقِيتُ بِحُسْنِ ظَنِّي"، إلى متى نصارع ظنوننا، ونكذِّب أعيننا، فالفاعل منا وفينا، ومن الجنون أن نلقى اللوم على من هو خارج البيت.

الذي يدعي الحيرة لا تصدقه، وحين يشير إلى خارج البيت لاتنظر بعيدا، المجرمون أمامك فلا تستحي، ولو كان قلبك جسورا، فانظر إلى المرآة وسوف تراهم.

إنها حياة رائعة

هناك أفلام تكاد تلامس المثالية، ومنهم فيلم "إنها حياة رائعة It's a Wonderful Life"، عُرِضَ أثناء الحرب العالمية الثانية عام 1946، ، يحكي عن مجتمع النصف الأول من القرن العشرين في أمريكا، مدينة يسيطر عليها شخص رأسمالي قوي، قاسي القلب ومتشبع بشهوة السيطرة، يربح من نشاط توفير وظائف ومساكن حقيرة للناس، تجهدهم وتبقيهم تعساء وفقراء، وفي الكفَّة الثانية من الميزان، رجل صالح يقوم بتكوين شركة وحيدة، "بنك للإقراض العقاري للفقراء"، يتعامل مع الناس برفق وإخلاص، ساعد البنك الفقراء أنْ يمتلكوا منزلا كريما، وعارض البنك حلم الرجل الرأسمالي أن يسيطر على المدينة، كان لدى مؤسس "البنك الخيري" ولد ذكي أسمه "جورج"، يحلم أنْ يهاجر ويدرس ويجوب العالم ويحقق طموحه، له صديقة جميلة تحبه، يقفا معا أمام منزل قديم مهجور يشبه منزل الساحرات، اعتاد أهل القرية انْ يلقي كل واحد منهم حجراً على المنزل بعد أن يتمنى أمنية، فيتمنى "جورج" أمنية ثم يلقي بحجر على زجاج المنزل، فتسأله ماذا تمنيت؟، فيخبرها بحلم الهجرة، فأمسكت بحجر وأسَرَّت أمنية ثم ألقت الحجر، فسألها ولم تجب، لكن المشاهد يفهم بداهة أنَّها تمنت أنْ لا تتحقق أمنيته لأنها تحبه ولا تريد رحيله.

يموت والده، ويتقدم عضو بمجلس إدارة المدينة باقتراح إلغاء "البنك الخيري"، فيقترح أحدهم أن يُعَيَّن الشاب مكان والده مقابل استمرار البنك، ويوافق الأعضاء، فيضطر الشاب تحت ضغط الشعور بالواجب أنْ يحمل المسؤولية، فيؤجل حلمه ويرسل أخاه بدلا منه للخارج، ويواصل خدمة الناس بالعمل بالبنك.

في نفس ليلة زفاف "جـورج" وعروسه، تحدث أزمة في "البنك الخيري"، ينتهي الفرح ثم يستقل الزوجان السيارة ومعهم دولارات كثيرة، قاموا بادخارها لتحقيق حلمهما بشهر عسل استثنائي خارج المدينة، وفي الطريق يلاحظ "جورج" تجمعا أمام "البنك الخيري"، يتوقف ثم يهبط من السيارة ليستعلم عما يحدث، يعرف ظروفاً طرأت فتسببت بفراغ الخزينة لفترة مؤقتة، فالمال الذي يجب أنْ يَرِد إلى البنك تأخر وصوله، فأحدث هرجا بين الناس لأنهم عرفوا أنَّ رصيد البنك صفر، فهرعوا متجمهرين ليتسابقوا إلى سحب نقودهم القليلة.

* * *

حين نتوقف لنتساءل، لو كان هذا مشهدا في فيلم مصري، كيف يعبر عنه خيال المؤلف والمخرج باسم الواقعية؟ أتصور أن الجمهور سيحطم الأبواب والمقاعد، ويطرح كل منهم الآخر أرضا أثناء التزاحم والتلاسن، ويمسك كل واحد أي شيء يطوله، وربما تدخلت الشرطة وقامت بضرب هؤلاء الهمج والحرافيش والنمل،

وحين ينفلت صوت العقل من شخص يطلب منهم الصبر، يردوا عليه بجملة شهيرة نعرفها: "نريد أن نربي عيالنا... يا عالم يا حرامية".

* * *

ولكن في الفيلم الأمريكي، حدث حوار وأفعال واستجابات مدهشة، وجد "جورج" الأبواب موصده أمام الناس، فتح الباب وأدخلهم ورحب بهم وطمأنهم وأكرمهم، وأثناء الحوار، اتصل به "الرأسمالي المسيطر على المدينة" وقدم عرضا بشراء الودائع، عَرَض أن يسدد للناس أموالهم بخصم نسبة قليلة من قيمتها، رفض الشاب من منطلق الثبات على المبدأ، ولعلمه بأنَّه لو وافق سوف يستولى الرأسمالي على القلعة الوحيدة للفقراء، ويتحكم في كل المدينة، يتوجه الشاب للناس بالشرح، لم يوبخهم أو يلومهم أو يتعالى عليهم، شرح بساطة العرض وخطورته، ورغم ذلك أوشكوا أن يقبلوا العرض، فناشدهم متوسلا أنْ يتَأنوا ويفكروا بهدوء ومنطق، ذَكَّرَهم بأنَّ هذا البنك جعلهم يمتلكون بيوتا ووظائف كريمة، ولهذا يستحق أنْ نتمسك به وإلا سوف يعود الجميع إلى الفقر والحاجة، يُعَبِّر بعض الجمهور عن فقره وحاجته الماسة لهذا المال، فتندفع عروس الشاب وتعطيه الأموال التي ستقضي بها شهر العسل، فيتلقفها ويقول لهم: "حسنا هذه الأموال خذوا منها حاجتكم، ولا داعي لأخذ كل حسابكم، فقط خذوا ما

تضطروا له"، يقوم بعضهم بطلب "عشر دولارات.. عشرين"، كل فرد أخذ ما يضطر له حاليا، واكتفى الناس من هذا المبلغ، وتبقى دولاران حتى موعد إغلاق البنك، ومرت الأزمة بتعاون قلوب وعقول الناس، وقضت العروس شهر العسل بمنزل قديم بالبلدة، وتذوقت السعادة بضمير هانئ وبدولارين .

* * *

ثم يأتي مشهد الختام الذي لا أرى له مثيل في السينما العالمية، تحدث أزمة للشاب لا ذنب له بها، يفقد مبلغا كبيرا وهذا قد يعرضه للسجن وإغلاق "البنك الخيري".

تتطور مشاعر اليأس فيخاطب السماء مستنجدا بها ثم يهم بالانتحار، هنا يتدخل الخيال الحر للسينما الأمريكية، يطرح فكرة بديعة، هي نفس فكرة الفيلم المصري "طير أنت"، مَلَاك يريد أن يترقى وينال أجنحة ولكنه يحتاج اختبار عَمَلي، فيكون الاختبار أن يساعد الشاب "جورج" الذي استنجد بالسماء، وعليها أن تلبي نداءه وترسل مَلَاك ليهديه وينقذه مما هو فيه، فإن نجح المَلَاك فسوف يفوز بالأجنحة ويترقى ملَاك من الدرجة الأولى.

ينتشله مَلَاك قبل الانتحار، يوبخه الشاب ويختم كلامه بالدعاء: "يا ليتني لم أولد"، فيُلْهَم مَلَاك فكرة ويقول: "حسنا سأحقق أمنيتك،

أنت لم تولد"، ولا ينتبه الشاب لهذه الكلمة، ويعود إلى المدينة ووراءه مَلَاك، يجلس في البار ويجد الصيدلي العجوز يتسول والناس تُهينه.

* * *

"حينما كان جورج صبيا، كان يعمل عند الصيدلي، يأتي الصيدلي خطاب يخبره بوفاة ولده، يسرف في الشراب، وتحت تأثير مشاعر الفاجعة والخمر، يخطئ ويضع سم في دواء، انتبه الصبي "جورج" للخطأ ومنع وصول الدواء للمريض، وأنقذ حياة المريض وسُمْعة ومستقبل الصيدلي".

ولهذا استغرب جورج من تغير حال الصيدلي وتعجب، فقال الناس له:

"هذا المجرم دخل السجن عشرين عاما لأنه وضع السم في دواء لمريض فمات، وقد خرج من السجن يتسول"، فقال له مَلَاك: "هل رأيت؟ حياتك كانت مهمة لإنقاذ الصيدلي والمريض".

ثم يذهب للمقابر فيجد شاهدا عليه اسم أخيه الذي توفي وهو صبي، فيتعجب، ويقول: "لكن أخي مازال على قيد الحياة وهو في الثلاثين"، فيقول له المَلَاك: "أنت أنقذته من الغرق وهو صبي، ولأنك لم تولد مات".

يسير في المدينة التي امتلأت ببيوت الفقراء الذين ساعدهم "البنك الخيري". فيجد البنك قد اختفى والبلد كلها تحولت إلى منازل

حقيرة للفقراء والكل تعيس وفقير، فيقول له مَلَاك: "لأنك لم تولد، انتصر الرأسمالي واستولى على البنك" ثم قال الجملة الفلسفية التي هي جوهر الفيلم: "حياة كل إنسان متصلة بعديد من الحيوات الأخرى". "حينما لا يكون موجودا يترك فجوة كبيرة"

* * *

هنا ننتبه للحكمة: "نحن لا نعيش في فراغ، وكل واحد منا هو جزء حي من حياة الآخرين". "لو لم نكن موجودين لحرموا من هذا الجزء الحي". "ولتغيرت حياتهم بدرجة مدهشة ومذهلة". "قد يكون للأفضل .... وقد يكون للأسوأ". "ربما كنا طوق نجاه ومعالم هدي". "وربما كنا مصدر شقاء ومعاناة وضلال".

* * *

يعود الشاب "جورج" إلى بيته وقد رحل المَلَاك، يجد كل شيء كما هو ولكن الجديد هو شعوره بالنعمة والإنجاز، وهنا نتعلم أننا نحتاج دائما لمن يذكرنا بقيمة ما بأيدينا.

ويُختم الفيلم بختام رائع وقيمي بامتياز.. ينتظر "جورج" السجن وخراب البنك بسبب الأموال التي ضاعت، فوجد زوجته قد أخبرت أهل المدينة بأنه في أزمة، فأسرع كل فرد بدفع ما يقدر عليه لتجميع المبلغ، وزاره الجميع في بيته وملأوا مائدته بالأموال وهم

يقولون: "لقد عملت لنا خيرا كثيرا، والآن جاء دورنا لنرد لك بعض الجميل". مرة أخرى يتحرك المجتمع وينقذ النخبة ويحيي العمل الصالح.

* * *

لو رجعنا للسينما المصرية التي تدمن مصطلح "الواقعية"، لوجدنا خيالها يعجز عن بلوغ المثال، فينسج خيال درامي انتقامي أناني بُكائي يبالغ في المشاعر السيئة، ولا يخطر بباله نبلاء ولا شجعان ولا منكرين لذاتهم، خيال مهزوم مقهور يتعلل بالضعف والحاجة ليبرر فساد الضمير والتضحية بالشرف، ويكرر جُمَل سلبية قليلة ووضيعة مثل "الظروف أقوى مني - أنا أربي كوم لحم - أنا بشر من دم ولحم عايز أعيش".

خيال يلقن الناس أن الأصل في الناس الوغدية والأنانية، في حين أنَّ وظيفة الإعلام والفنون نشر القيم وزرعها في خيال الناس، وليس الترويج للشر والضعف وتبريره وتحسينه في ضمير الناس.

"رجل أسمه عباس"

تتكثف في حياتنا قصص الظلم والقهر، وفي أغلبها يكون الظالم فرد أو جماعة صغيرة العدد، ويكون المظلوم شعب، والفرق بين الظالم والمظلوم، أنَّ الظالمين يتعاونون ويتكاتفون رغم قلة عددهم، وأنَّ المظلومين متفرقون وغير متعاونين رغم كثرة عددهم.

في عام 1976 شاهدت فيلما عن قصة "إحسان كمال- أحلام العمر كله"، بعنوان "رجل اسمه عباس"، بطولة "محمود المليجي"، يحكي عن مدرس تاريخ بالقاهرة، بعد أن يحال إلى المعاش يضطر للعمل في مدرسة بقرية في الصعيد، ويعلم أنَّه قد نشب بالقرية ثأر عنيف بين عائلتين، وكثر عدد القتلى ومعه عدد الأرامل، يشهد مع رجل صعيدي ومعهما أناس آخرون حادث قتل، ومع ذلك لم يشهد أحد بما رأى، فعاتب المدرس صديقه الصعيدي وشرح له أنَّ التاريخ هو شخص أو أهل بلدة قاموا بتغيير الظلم، وتعجب ألَّا يوجد في القرية من يجرؤ على الشهادة، يتأثر الرجل ويعزم على الذهاب إلى مركز الشرطة ليشهد، ولكنه يُقتل قبل وصوله المبنى، ولا يتردد المدرس في الإعلان عن نيته الشهادة بما رأى، وينصحه المأمور أن لا يفعل، وأن يسارع بالرحيل مع أسرته للقاهرة في حراسة الشرطة، وفي الصباح تستقل الأسرة السيارة ومعهم الأثاث والحقائب، وينتظرون منه أن

يركب معهم، ولكنه يتوجه للقسم ليشهد، ثم يقول للمأمور: "لقد كاد الخوف أن ينسيني ما أعَلِّمه لتلاميذي"، ثم أدلى بشهادته.

ولا يعرف المشاهد ماذا حدث له بعد أن خرج للشارع، ولكن وصلت الرسالة للجمهور، بأنَّه يجب ألا يخلو الناس من نخبة تشهد بالعدل مهما كانت التضحيات والعواقب.

كنت أتمنى لو قام المؤلف بخطوة أقوى وأكثر واقعية، وهي أن يُقنع المدرس فردا أو اثنان بالذهاب معه، فيتساندوا، فأغلب قصص الفدائيين فرد واحد شهيد، ومواجهة الواقع الظالم، يتطلب أفراد يتصدوا معا للتغيير.

* * *

في مقال للإمام "محمد عبده"؛ كتبه بمناسبة ذكرى تنصيب رائد الأسرة العلوية "محمد على"، طرح سؤالا: "الشعب المصري في مقاومته للحملة الفرنسية، عام 1798م، لم يدع الجنود الفرنسيين يهنئون يوما واحدا طوال سنوات الاحتلال القليلة، عاشت فرنسا في جحيم مقاومة مستمرة لا تهدأ، حتى رحل الاحتلال. في حين أنه نفس الشعب الذي هُزم زعماؤه "عرابي وجنوده" بسهولة عام 1882، وبعد الهزيمة دانت البلاد للإنجليز وهدأت مقاومة الشعب وتقبل الاحتلال إلى حين، فكيف يُفهم هذا التناقض بين موقف المصريين في الحالين".

أجاب "محمد عبده" قائلا: "أعترف أن "محمد علي" هو باني الدولة المصرية الحديثة، ولكن الثمن كان خنوع الشعب وفقده لقدرته وثقته بنفسه، فبنى دولة وهدم المواطن".

في هذا المقال عرفنا أهمية الشعور بالإباء والكرامة عند الشعوب، وأنه حين يُطفأ في الصدور، يسهل ظلمهم وقهرهم.

* * *

ذكر الكاتب "صلاح عيسى" فى كتابه "هوامش المقريزى.. حكايات من مصر": كان (بارتلمى سيرا) وجنسيته يوناني، وكعادة المصريين في السخرية من جلادهم سموه (فرط الرمان) أيامها - في أواخر العهد المملوكي - كانت مصر ميدانا خاليا لسفلة الأجانب، ولأنه كان يحترف العسكرية فقد التحق بخدمة الأمير المملوكي محمد بك الألفي، في فرقة الطوبجية - أي سلاح المدفعية، وعندما جاءت "الحملة الفرنسية" إلى مصر وعين وكيلا لمحافظة القاهرة، أشبع بذلك نهمه للقتل والتعذيب، إذ كانت هوايته المفضلة هي القتل الجماعي للمماليك والمصريين، على السواء، وكان يطوف في شوارع القاهرة والسيف مسلول في يده، وحوله وأمامه قوة تبلغ المائة من اليونانيين، غلاظ القلوب على شاكلته.

بسبب إسرافه في القسوة وإمعانه في الظلم ورغبته في التشفي من الشعب المصري، ذهب مباشرة - بعد واحدة من جولاته - إلى الجنرال "دي بويوي" الحاكم العسكري الفرنسي لمدينة القاهرة، وكان يتناول الغداء مع بعض ضيوفه فقدم إليه زكيبة ظن الجنرال أول الأمر أنه تحوي هدية، بطيخ أو شمام، فأمر بفض الزكيبة فإذا بها تحتوى على اثني عشر رأسا من رؤوس المصرين الذين قتلهم، جاء يعرضهم على رئيسه الجنرال فخورا ومختالا، وامتعض الحاضرون من هذا المشهد الدامي، وأمر الجنرال بإخراجه مع زكيبته من قاعة الطعام.

* * *

هناك شخصية شهيرة ومتكررة في القرى المصرية، تسمى "رجل الليل"، شقي يؤجر لقتل إنسان مقابل مال، يأتيه شخص يريد التخلص من منافس أو عدو، فيعطيه مالا ومعلومات عن الشخص، فيتربص به ويقتله، وفي العادة يحيا هذا الشقي في حماية ثري من الإقطاع، يستخدم الثري سلطته لمنع القبض على الشقي وتسهيل اختفاءه، وفي نفس الوقت يكون الشقي أداة يُسلطها الإقطاعي على الناس، فيقوم ببعض المهمات لصالحه، فيقتل من يطلب منه الإقطاعي قتله.

هذا الشقي كان يثير الرعب في أهل عدة قرى، ولا يجرؤ أحد أنْ يشي به أو يشهد ضده، ويحيا الناس في ذل، وكلما تأمَّلتُ في هذه الشخصية كنت أتعجب من الناس، كيف لرجل أو بضعة رجال من الأشقياء أن يهينوا عشرات الآلاف من الناس ويقهروهم، ألا يستطيع بعض الشباب التطوع لمواجهتهم معا!، للأسف مثال الشباب الذي يتصدر نادر في تراثنا، فالخوف وحفظ النفس بأي ثمن هو خيار الفلاحين عبر القرون الأخيرة، وحين ينتشر الجبن في الناس وتنعدم المبادرة والنخوة لا أمل في التخلص من الذل والإهانة.

لو قام رجال بالاعتداء على أهل بيت، يغتصبوا النساء والأموال ويهينوا الرجال، في تلك اللحظة لا بد من الدفاع عن النفس فورا، أو الانتقام بعد انتهاء الحدث، ولكن لو مر الاعتداء وتشرب الناس ومن حولهم الإهانة ولم يفكروا في التعاون لرفع الظلم ومنع تكراره، سوف يحيا الناس على الهامش، يُظلمون ويهانون بلا نية مقاومة، ويعتادوا الظلم ويتشربوا الذل.

* * *

في عصر أسرة "محمد علي"، كانت تفرض الضرائب على الفلاحين بالقوة، ومَن لم يدفع تصادر بهائمه وممتلكاته ويُجلد أمام أهل بيته، وبهذا كانت الإهانة تمارس أمام الزوجة والأولاد والأهل، ويصمت الجميع، ويتكرر الحدث مع الجميع ويعتاد الناس الإهانة والظلم

بلا حدود، ولا يخطر ببال شباب القرى التعاون والمغامرة والكفاح بالعمل على تغيير الوضع أو تخفيف الظلم.

* * *

قتل الأمريكان أحد الشخصيات المتهمة بالإرهاب، وكان له أخ مسجون بأحد الدول الديكتاتورية، فطلب السفير الأمريكي من المسؤولين عندهم، أن يحضروا شيئا من أخيه المسجون كي يتأكدوا من شخصية القتيل، فاقترحوا عليه أن يعطوه ذراعا، فرد في انزعاج: "يكفي خصلات من شعر رأسه".

* * *

أتذكر هذا الفيلم الأمريكي بعنوان "مواطن ملتزم بالقانون - law abiding citizen"، يَقْتحم لصان منزل به رجل وامرأته وابنته، يقتل أحد اللصين المرأة بعد أنْ يَغتصبها أمام زوجها ثم يَقتل الطفلة، ويُقبض على اللصين ولكن نظرا لأنَّ الزوج هو الشاهد الوحيد، وأنَّه فَقَد وعيه أثناء الاقتحام، لم تكن الأدلة كافية لإدانة اللصين، ويوشك بواسطة ثغرات القانون أنْ يُفْرج عنهما، فيُجْبِر نائب المدعي العام، الزوج على أن يَقبل صفقة تجعل القاتل يَشهد على زميله الذي لم يَقْتل، فيعُدم أحدهما ويُحكم على الشاهد بخمس سنوات فقط، تمر عشر سنوات ويعود الزوج لينتقم من الجميع، الزوج مهندس

عبقري يقوم بتدبير قتل عنْ بُعْد للجميع، قتل انتقامي وتدريجي وليس دفعة واحدة، ورغم حبس المهندس، يَستمر القتل عنْ بُعد.

لست من هواة أفلام الجريمة أو الحركة وكدت اتوقف عن مشاهدة الفيلم، ولكني أحسست أنَّ الفكرة تتجاوز غَرَض الإثارة السينمائية، فالزوج السجين ظَلَّ في السجن يقتل عن بُعد، يَقْتل مَن!، "اللصوص. القاضية. المحامين. وكلاء النيابة" يتوقع المزيد، ووصل الأمر إلى أنَّ عُمدة الولاية فرضت الطوارئ تَحَسّبا لتدمير بلا حدود بسبب هذا المهندس المحبوس.

يخطر بالبال سؤال مصري عربي بديهي، لماذا لم تَغْتال السلطة بنفسها الرجل الذي بين أيديهم، أو تسلط عليه مجرم آخر يقتله وتكون أيدي السلطة نظيفة، لماذا لم تُعذبه ليعترف بما يخطط له، حتى يتوقف مسلسل القتل؟ فلو كان هذا فيلما مصريا لانتهى في دقائقه الأولى باغتياله أو تعذيبه حتى يعترف، ولو رأى العربي هذا الفيلم لما أعجبه ولا اقتنع به ولرآه ساذجا، لأن من بديهيات العربي أنَّ الإنسان مُستباح، وخاصة حين يُتهم بالإرهاب، ولكن عند الغرب هناك دستور وقانون وحقوق، ولا يستباح الإنسان إلا وفق شروطهما.

المحتويات

المقدمة..... 7

الشقاق الأخرس 9

نفسية الأهلي والزمالك 18

قالب الزوجية 24

الحكيم في باريس 30

الغانية و العبيط..... 35

خلط واختلاط 42

وجهة نظر..... 49

العاطفة والقطط..... 55

الجردل هو الحل 62

المِتْبَلم 70

الحمار والحبل 76

روبسبير والمقصلة..... 84

عود الكبريت..... 91

التأنيب..... 97

حواجز شفافة 103
أنصاف وإنصاف 111
شباب بلا أغلال..... 117
الدجالون..... 123
حقيبة الساذج 130
مثال نادر 134
بلا سراديب 138
علل نفسية 142
"أرواحنا في المساء" 149
الحكمة والإخلاص 160
"مشاعر الأباصيري" 168
"كلمة السر"..... 176
"خارج الصندوق" 183
بليغ حمدي..... 190
الجهد المثقوب 195
إنها حياة رائعة 202
"رجل أسمه عباس"..... 209

2024

قالوا: «الجمل طلع النخلة وتَمرجَح على أغصانها»، هذا الخيال أصغر بكثير مما يمكن أن يفعله المجتمع عندما يفقد بوصلته.

ماذا لو أن مفكرا أوروبيا في القرون الوسطى تنبأ بأنه سيأتي زمن تكون فيه العلاقة بين الشاب والفتاة بلا زواج كما هي اليوم؟ ماذا لو أخبرهم أن الفتاة التي تظل عذراء بعد البلوغ، تثير قلقا لأهلها فيبحثون لها عن طبيب نفسي أو يحاول اخوها أن يقنع صديقه بأن يصاحبها؟.. لا شك أنهم ساخرون منه ومتهموه بالجنون!

ماذا لو تنبأ عربي من عشرين سنة أن أكبر موضة ستنتشر بين الشباب هي البنطلونات المثقوبة والمرقعة من ناحية أخرى.. أكان يصدق أحد هذا؟

المجتمع الذي يعيش بلا نخبة مفكرة توجهه يجد نفسه بلا متنفس فتغلق مسامه على طاقة خبيثة وتنفرد به أفكار غير راشدة سرعان ما يطيش بها، عندها يصعد جمل المجتمع فوق النخلة حاملاً في يده منديلاً فيه فيل!

النخبة للنشر والتوزيع
6225000252869